مكتبة الهلال

أعلام في حياتنا

د. نعمات أحمد فؤاد

أعلام فى حياتنا

بقلم

د. نعمات أحمد فؤاد

دار الهلال

إلى هؤلاء الأعلام الذين أثروا حياتنا بالعطاء والوفاء والقدوة فكانوا تاريخا فى بلد التاريخ والأعراق والأعماق .

وإلى الشباب المصرى هذه النماذج المضيئة . من آباء شقوا الطريق لمن بعدهم ليسيروا على دربهم لتتواصل الأجيال .

د. نعمات أحمد فؤاد

الغلاف للفنان

محمد أبو طالب

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

فى كتابى (قمم أدبية) وقفت بالدراسة عند أعلام الأدب والريادات الفكرية ، الأساتذة :

لطفى السيد - العقاد - طه حسين - أحمد حسن الزيات - توفيق الحكيم - عبدالوهاب عزام - محمد فريد أبو حديد - محمد كامل حسين - محمود تيمور - يحيى حقى - على أدهم .

ثم أفردت كتابا لكل من :

الأستاذ عباس محمود العقاد

الأستاذ ابراهيم عبدالقادر المازنى

الشاعر أحمد رامى

وبعد هذا تناولت بالدراسة أعلاما من غير الحقل الأدبى ، فإنى كاتبة انتمى إلى الأدباء ، ومصرية أنتمى إلى عطاءات مصر فى كل مجال .

لهذا تناولت بالدراسة أعلاما فى العلم والفن والدين مثل :

المهندس حسن فتحى

الاقتصادى طلعت حرب

الفنان مختار
الفنان حامد سعيد
الفنان صلاح طاهر
عميد الترجمة محمد بدران
الاثرى حسن عبدالوهاب
الاثرى د. أحمد قدرى

ومن رجال الدين :

الإمام المراغى
الإمام الشيخ مصطفى عبدالرازق
الشيخ محمد عبده
الشيخ الغزالى
الاستاذ محمد فؤاد عبدالباقى

كما وقفت مرة أخرى عند كُتَّاب وشعراء لم أكن قد كتبت عنهم فى كتابى (قمم أدبية) مثل :

الشاعر الكاتب مصطفى عبداللطيف السحرتى
شاعر الأسكندرية عبداللطيف النشار

والحقيقة أنه قد سبق لى أن أفردت للشعر والشعراء كتبا مثل :

خصائص الشعر الحديث
ناجى الشاعر
ابو القاسم الشابى (شعب ومشاعر)
الأخطل الصغير (بشارة الخورى)
ثم ضم الثلاثة (ناجى - الشابى - الأخطل) كتاب كبير باسم (شعراء ثلاثة) كما أفردت كتابا للشاعر أحمد رامى كما أشرت . وأفردت كتابا جامعا عن (أم كلثوم وعصر من الفن) .
إنها علامة عصر .. ولعل فيه كفاء عن اعتزازى بـ (المصرية) .
فإذا افتقد قارئ هذا الكتاب مصريات لهن دور فلست بغافلة أو جاحدة ولكنى سأفرد للموضوع كتابا بما يمثل من معنى ودلالة .
وكتاب (أعلام فى حياتنا) فيه نقطتان للحديث :
الأولى : إننى كتبت صفحة واحدة عن المغفور له الملك فيصل وما كتبت يوما عن ملوك أو حكام بل واجهت غير واحد إعلاء للحق أو وفاء لوطن .. ولكنى هنا كتبت أسجل للملك فيصل وقفته مع مصر وهى تخوض معركة فاصلة مع عدو باغ طاغ .. وهنا كان

الملك فيصل علما فى حياة الأمة العربية كلها .
فوجبت كلمة الشكر العميق .
الأخرى : وددت أن أكتب عن قضاة مصر ممن عاصرتهم وكم منهم من حكموا فى القضايا القومية ضد من هم فى السلطة إعلاء للحق ووفاء للضمير المصرى والتاريخ المصرى - نعم كتبت عن رجل القانون الاستاذ مصطفى مرعى ولكنه وقت الكتابة كان بعيدا عن المناصب وإن كان ملء السمع والبصر فى الحياة المصرية - القضاء له تقاليده التى نجلها والقاضى لا يشكر على عدله ولهذا وجدت خير تحية لهم أن أكتب عن :
(رحلة العدل فى مصر) .
بدون أسماء إلا إذا كانت الأسماء من الأجيال السابقة لم أعاصر أصحابها فأنا فى حل من ذكر أسمائهم .
وحين يكون الحدث : رحلة العدل أو بنك مصر الذى لم أستطع أن أفصل بينه وبين طلعت حرب - فإن الحدث فى هذه الحالة : روح وشخصية وعلامات مضيئة وأعلام مرفوعة .... أعلام فى حياتنا .

د. نعمات أحمد فؤاد

القاهرة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م

رجال ومواقف
الإمام المراغى صاحب الفضيلة

نمر بأيام ، أحس فيها احساسا عميقا بحاجتنا إلى مواقف الأئمة العظام لأننا من الحادثات فى زلزال لا أريد أن يمر فى الزحام والقتام والرغام والبلاء.

ممزقة أنا بين ما يحاك لنا فى الخارج .. وما يصنع بنا فى الداخل فأخاف على حاضر مصر ومستقبلها ويمر أمامى كشعاع من نور الله يبدد غياهب الظلمات ، كوكبة من الأعلام الذين نشرف بهم دينا ووطنا وزمانا ومكانا وانسانا : الشيخ محمد عبده - الإمام المراغى - الشيخ شلتوت - الشيخ عبدالحليم محمود .

وأخوة هذا الطراز الرفيع المنيع ... الطراز الذى أصبح تاريخا نرجع إليه، كلما أطبقت الظلمات لنحفظ على الأجيال الصاعدة ، الأمل ، بعد الله ، فى الوطن ... فى الشرفاء ... فى ترفع النفوس الكبيرة عن الدنايا والخطايا والإسفاف .

ما أحوج هذا الجيل إلى النماذج المضيئة تلهمه وتحمله على الاقتدار والاهتداء إذا عزت القدوة وغاب الكبرياء .

ومن هؤلاء الشرفاء ، الإمام المراغى .

كان عف اللسان واليد والضمير .. كان إماما وكان علامة وكان هامة ، وكان قمة ، وكان قيمة ، وكان موقفا ...

والإنسان موقف .

سأله يوما ، المندوب السامى السير برسى لورين :

– إذا أجريت الانتخابات من سينال الأغلبية ؟ الوفد أم الأحرار الدستوريون ؟

فقال الشيخ المراغى : سينال الأغلبية الساحقة ، الوفد .

فعجب السير لورين فقال : إنى أعرف أنك أعز صديق لمحمد محمود باشا فكيف تعطى هذه الشهادة ضد صديقك !

فقال الشيخ المراغى : إن شيخ الإسلام لا يكذب

واستقال محمد محمود باشا وبعد ذلك بيومين استقال الإمام الأكبر ، الشيخ المراغى من منصبه وكان يعرف يقينا أنه سيدفع هذا الثمن . فكان أصدقاؤه يقولون له :

هذه الشهادة أسقطت الوزارة فيقول صاحب الفضيلة :

– هذه هى شهادة الحق ..

أقول إن الشيخ المراغى لا يكذب لأنه من بيت ...

والذى يأبى الكذب لا يخون ومن هذا اقترن الصدق بالأمانة ..

ومن هنا كان الرسول عليه السلام يلقب حتى قبل الرسالة ، بالصادق الأمين .

★ ★ ★

نادى الشيخ المراغى وهو قاضى القضاة فى السودان بالاكتتاب لمنكوبى الثورة المصرية الوطنية وتدخل الحاكم العام الانجليزى واشتد الجدل بينهما فقال الحاكم العام :

- إنى أكلمك كرئيس ويجب إبطال الاكتتاب فورا منعا للثورة .

فرد عليه الإمام المراغى فى شموخ :

- كنت أفهم أنك تعلم واجبك .. إنه ليس لى رئيس هنا فإن الحاكم العام معين بأمر ملكى وهو الحاكم السياسى ... وأنا معين بأمر ملكى وأنا قاضى القضاة ... ولا إشراف لأحد منا على الآخر.

ورضخ الحاكم .

كان الإمام المراغى جبهة عالية ورأسا مرفوعا لا ينحنى ولا يمالئ مستعمرا ولا يخاف غير الله .. لا يتصاغر ولا يتقامأ لأنه يعرف قيمة نفسه وهى عالية ، وقيمة الأزهر وهى رفيعة .

وأرسل الشيخ المراغى صاحب الفضيلة وصاحب المواقف ، الاكتتاب الذى بلغ ستة آلاف جنيه بمقياس العشرينات من

هذا القرن إلى الاستاذ محمد العشماوى (العشماوى باشا فيما بعد) الذى كان فى ذلك الوقت قاضيا مدنيا بالخرطوم على أن يقوم برفعه للجمعيات الخيرية الإسلامية والقبطية فى القاهرة .

وأسقط فى يد انجلترا .

كان حقا إماما ... وكان كبيرا ... وكان موقفا .

★ ★ ★

أعلن الإمام المراغى فى الحرب العالمية الثانية أن مصر لا ناقة، لها، فيها ولا جمل ... وأن المعسكرين لا يمتان إليها بصلة ... لماذا تكابد الإسكندرية القنابل ؟

وانتشرت كلمته عبر الأثير فى شتى أنحاء العالم ففزع مايلز لامبسون فزعا شديدا وهاتف رئيس الوزراء يومئذ (حسين سرى) وفزع بدوره حسين سرى واتصل بالإمام الأكبر قبيل الفجر محتجا طالبا أن يحيطه علما بما يقول !! لقد تجاوز حده .

وكان رد الإمام الذى يعرف تاريخ مصر ، كبيراً رفيعاً :

– أتريد أن أعرض عليك كلامى ؟ من أنت ؟ أنا أستطيع أن أقيلك من منصبك بخطبة واحدة من فوق منبر الأزهر أو منبر الحسين . قل هذا لمن هددك يا حسين .

فلم يحر جوابا ...

إن الذى يتكلم الإمام المراغى بشعبيته الجامعة وتاريخه المشرف .

★ ★ ★

طلب إليه الملك فاروق أن يفتى بتحريم زواج الملكة فريدة بعد طلاقها منه .

فرد الإمام المراغى على الملك فى وضوح :

(أما الطلاق فلا أرضاه ... وأما التحريم فلا أملكه) .

وانصاع الملك لأن الذى يكلمه لم يكن عبدا بل سيدا .

أما موقف رجلنا الكبير الإمام المراغى فى قضية الوقف فكان مجدا وكان سؤددا .

أراده أصحاب القضية أن يتنحى عن نظرها مقابل عشرة آلاف جنيه (أى ثمن عزبة .. ضيعة كبيرة فى نظر عباد المال ولكن رجل الدين والفكر والرأى والخلق ضرب ، شريفا ، بالعرض المادى، عرض الحائط فألقوا عليه النار تحرق رقبته ..

وهنا حدث ما لا يتكرر .

تحمل النار الكاوية وذهب إلى المحكمة لينطق بالحكم !!

كان ضميرا ... وكان مجدا ..

لم تنته الاسطورة بعد ..

كان محاميه أحمد لطفى بك نقيب المحامين قد مات بعد المرافعة ولم يترك لأولاده شيئا فتنازل الإمام العظيم الكبير، عن التعويض وهو آلاف لأسرة المحامى ..

بعد الشخصية السامقة ، انتقل إلى المنصب الذى كان الإمام المراغى علما عليه ، ورمزا له .. وتاريخا فى تاريخه ، وعلما من أعلامه حين كان الأزهر ، ركنا ، نستشرف إليه ونفخر به .

فى عهد الإمام المراغى كان الأزهر مسجدا وجامعة ومرقى صلاة ، ومهوى أفئدة .. وبعد هذا كله كان الأزهر قلعة لا تستباح ولا تباح مكانا ومكانة .. قلعة يعتصم بها المسلمون ويرهبها الأعداء ويحسبون لها ألف حساب فلا يجرؤ أحد أن يستقطبه أو يستكتبه أو يملى عليه أو يتدخل فى شئون الأزهر التى يمثلها ويحميها الإمام الأكبر الشيخ المراغى .

كان المراغى يؤمن بالإصلاح والتفتح على جديد الحياة ودراسته ومواكبته ما أعانت هذه المواكبة على تجديد سديد يضيف. فاللغة والدين دراستهما تثرى بدراسة العلوم الكونية التى ترتبط بها .. أى أن رجل اللغة يتعين عليه أن يدرس الأدب .. والفقيه يحتاج إلى العلوم الاجتماعية بل دعا إلى دراسة اللغات

التى تمكن أبناء الأزهر من الاتصال بعلوم الآخرين وتدعمهم وتؤهلهم لتوصيل الإسلام إلى أقوام لا يتكلمون العربية بل نشر الثقافة الإسلامية بينهم ..

وامتد بصره وبصيرته إلى خارج حدود مصر فاستشرف إلى توحيد الأمة الإسلامية على اختلاف ديارها والحفاظ على مقوماتها وحل قضاياها ..

وخاف أعداء الإصلاح فاعتكف فى اعتزاز بنفسه ، خمس سنوات تكشفت أثناءها الحاجة الماسة إلى الإصلاح الذى نادى به وثار الأزهر سنة ١٩٣٥ مطالبا بعودة الإمام المراغى .

عاد والأمل معقود عليه ، والاصلاح منوط به ، (فقد كان رأيه ورؤيته مقطع الصواب كما يقول الاستاذ أحمد حسن الزيات فى إصلاح الأزهر منهجا وغاية وما نظن أحدا ممن تحرى وجوه الإصلاح لهذه الجامعة الإسلامية العظمى ، قد بلغ من ذلك ما بلغ المراغى .

نادى الإمام المراغى بدراسة الفقه الإسلامى دراسة حرة واسعة الأفق ، مرتبطة القواعد بأصولها من الأدلة .. وكم بين توسيع المناهج ، وبين تقزيم المناهج من دلالات .

بل نادى الإمام المراغى بدراسة الأديان دراسة مقارنة لتتجلى الصورة المشرقة للإسلام ... الصورة التى يتحيفها قوم ويجهلها آخرون .

كم له من مواقف يشرف بها الرجال .

لقد أنقص مخصصات شيخ الأزهر وحوّل حصة من بعض الوقفيات إلى وزارة الأوقاف واستبدل جراية الخبز لطلاب الأزهر بالنقود إعلاء للكرامة وارتفاعا .

موقف ... والإنسان موقف

وتذكرت الطلبة الأندونيسيين وما حاق بهم بالأمس القريب لولا أن تدارك الأمر ، خيرون من خارج الأزهر .

★ ★ ★

كان الأزهر ، به ، لنا حصنا .. وكان ركنا .. وكان وطنا .. وكان حرما .. وكان مسجدا ممجدا .. وكان جامعة إسلامية .. وكان لطلابه مرادا وموردا .

أما الإمام المراغى فكان جمعا فى رجل ... وكان رجلا فى تاريخ الإسلام الذى يضيئه الأئمة الهداة الصادقون والأخاء الشرفاء .. الصالحون والمصلحون فعاشوا فى الحياة وبعد

الحياة. وفى الناس موتى في حياتهم وإن كانوا يدبون على الأرض بقدمين ، أحيانا عاريتين .

★ ★ ★

هذه لمحة فقط من سيرة عطرة دمثة نقية لا تعلق بها شائبة تزرى .

هذه نفحة فقط من سيرة لا تنضب وهي بغناها وتقواها وعلاها، سند ومدد للكاتب والمؤرخ والإنسان .

حصاد القرن العشرين فى الدين
الشيخ مصطفى عبدالرازق الإمام الأكبر

بعد غياب أعود إلى موضوعى (حصاد القرن العشرين) لنحيا وهذه المرة فى الدين ، ليكون العود ، أحلى .

الشيخ مصطفى عبدالرازق كان إماما وكان إمامة وكان علامة وكان هامة .

كان خريج السوربون وكان استاذ الفلسفة فى جامعة القاهرة وكان أحد أقطاب المجتمع السياسى بحكم مركز أسرته العريقة .

كان ينطق العربية فى فصاحة ، ويتكلم الفرنسية فى طلاقة ، كان باشا ابن باشا من أسرة باشاوات ومع هذا عندما صار شيخا للأزهر نزل عن الباشوية واحتفظ بلقب الاستاذ الأكبر ودخل التاريخ وهو الأستاذ الأكبر لم يسقط عن اللقب الكبير لأن حياته الرفيعة ارتفعت إلى قمة الدين بعد قمة الحسب .

كان مهيب الطلعة وكان خاشع الصوت دمث الأسلوب النفسى والبيانى لم ينطق فى حياته لفظا نابيا ولم يكتب فى حياته أسلوبا

فجا . كان عف اللسان واليد والضمير . يصفه الأستاذ كامل الشناوى فى كتابه (لقاء معهم) :

(كانت أفكاره وألفاظه ومشاعره وعقيدته وأخلاقه مثل ثيابه نظيفة) .

ويقول فى موضع آخر : (دفع به والده الثرى إلى الأزهر الشريف ولم يكن مصطفى عبدالرازق وأخوه على عبدالرازق من المجاورين العاديين ولا من المجاورين غير العاديين بل كانا من السراة الأماثل ! فقد كانا يعيشان في قصر والدهما حسن عبدالرازق باشا فى القاهرة . وكان الباشا عميدا لأسرة عبدالرازق وهى أسرة تملك آلاف الأفدنة فى محافظة المنيا وتربطها علاقات نسب وقرابة بأكثر العائلات الغنية المنتشرة فى هذه المنطقة بالذات) .

كان أديبا وكان استاذا للفلسفة . تعلم فى فرنسا وتخصص فى الأدب مما خلع على أسلوبه رواء وبهاء سعدت بهما الموهبة .

كان ولوعا بالفلسفة وخاصة الفلسفة الإسلامية والفلاسفة المسلمين ، وله فى هذا الباع دراسات عميقة .. ولكنه كان بالأدب أشد ولوعا ..

ألف فى الفلسفة كتبا قيمة منها : كتاب (تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية) وكتاب (فيلسوف العرب والمعلم الثانى) وكتاب (سيرة الكندى والفارابى) وله في الأدب (مذكرات مسافر) و(مذكرات مقيم) :

وكتاب (محمد عبده) مزيجا من الدين والأدب كما ترجم (رسالة التوحيد) إلى الفرنسية مع «ميشيل برناد» . وقد أصدر شقيقه على عبدالرازق كتابا عنه : (من آثار مصطفى عبدالرازق) يضم : (صفحات من سفر الحياة) (كتاب الواجب) - (مقالات السفور) - (مذكرات مسافر) - (مذكرات مقيم) - (متفرقات) .

هذا الرجل العظيم الذى كان آية حين أصبح شيخا للإسلام سنة ١٩٤٥ فاجأه النبأ وحاول أن يعتذر .

وقد مكث فى المنصب عاما ، وفى سنة ١٩٤٦ قامت فى الأزهر ثورة بسبب تخطى الحكومة خريجى الأزهر فى بعض المناصب التى كانت مخصصة لهم .... والثورات عادة كالنار لا تميز بين الأخضر واليابس .

سمع الشيخ المصقول الكريم على نفسه وعلى الحياة .. الشيخ رفيع المكان والمكانة قبل المناصب وبعدها ... سمع

بأذنيه هتاف بعض الطلبة يجـرفه فـى تيار الغضـب فلم يخرج عن وقاره ووقار الإمام .. وعاد إلى بيته حزينا وبعد ساعات مات بالسكتة القلبية .

إن الحياة والموت بيد الله ولكن الكبير الحساس سليل البيوتات الكبيـرة كابرا عن كابر الذى يعف عن السباب والعقاب .. يقتله الكتمان وهو فى قمة الرجحان مع أن البحر الزاخر لا يضره أن رمى فيه صغير بحجر .

★ ★ ★

كان ابن بيته .. وبيته من بيوتات المجد فكتب إمامنا عن أمجاد فى قومهم وعلمهم مثله .. شبيه الشئ منجذب إليه .

كتب عن الكندى وهو من قبيلة لها ذكر فى الفتوح ومنهم من ولى الولايات ومنهم من تولى القـضـاء ، وكـان الكندى عـارفـا بالسريانية ينقل الكتب منها إلى العربية فقد جاء فى كتاب (أخبار العلماء بأخبار الحكماء) :

(ومما اشتـهر من كتب بطليموس وخرج إلى العربية ، كتاب الجـغرافيا فى المعمور من الأرض وهذا الكتاب نقله الكندى إلى العربيـة نقلا عن السريانيـة يقول ابن النديم فى الفـهـرست عن الكندى :

(فاضل دهره وواحد عصره فى معرفة العلوم القديمة بأسرها).

هل لهذا كله كتب إمامنا العالم الأديب الحسيب مصطفى عبدالرازق عن الكندى ؟

أما العلم الثانى الذى كتب عنه علمنا مصطفى عبدالرازق فهو الفارابى الذى كان أول من عنى بإحصاء العلوم وترتيبها فى كتابه (إحصاء العلوم) الذى نشره فى مصر الدكتور عثمان أمين ١٩٣١ وفى أسبانيا المستشرق لانسيا ١٩٣٤ .

ومن هنا يعتبره بعض الباحثين أول واضع لنواة دوائر المعارف .

والفارابى علامة من علامات فن الموسيقى .

علم وفن .. وكان إمامنا مصطفى عبدالرازق رجل علم وفن يحب الأدب والموسيقى .. والأدب موسيقى ذات أفكار ..

هل من أجل هذا كله كتب عالمنا الأديب عن الفارابى ؟

أما المتنبى فقد سبقنا استاذنا مصطفى عبدالرازق إلى سبب كتابته عنه حين قال : (والأدب العربى فيما نعلم لم ينتج غير المتنبى وغير المعرى شاعرا فيلسوفا ، ومن فضل المتنبى على الفلسفة أنه بثها فى الشعر يوم كانت تلتمس لها منفذا إلى العقول

والقلوب فى تقية وفى وجل .. ولعل شعر المتنبى كان من أسباب عناية الكُتَّاب والشعراء بالدراسات الفلسفية استكمالا لفنهم .. وطمعا فى اللحاق بذلك الشاعر الفيلسوف الذى شغلت به الألسن وسهرت فى شعره العيون .

أكتب عن إمامنا العالم فخر العلماء .. ومؤلف الكتب عنهم .. ومن هؤلاء (ابن الهيثم) الذى دعاه «بطليموس العرب» .

وقارئه يلحظ للوهلة الأولى ، أن كل من كتب عنهم ، فيهم شئ منه . فابن الهيثم كان لا يحب المناصب ويؤثر عليها التفرغ للعلم والبحث حتى رويت عنه قصة عجيبة وطريفة فى آن واحد . فقد ولاه الحاكم الخليفة الفاطمى أحد الدواوين فضاق بهذا صدره ولم يجد سبيلا للخلاص من فتنة الحكم وفتنة الحاكم إلا بإظهار الجنون واحتمال الحبس فى داره والحجز على ماله عدة سنين فلما مات الخليفة ، عاد الفيلسوف إلى الاشتغال بعلمه فى عزلة وزهادة وكفاف العيش .

وإذا كان ابن الهيثم بصرى المولد ، فقد انتقل إلى مصر وأقام بها إلى آخر عمره فلا غرو أن يلقبه المؤرخون بالمصرى ، ويقول إمامنا الشيخ مصطفى عبدالرازق إن القاهرة احتفلت منذ سنين احتفالا كبيرا فى الساحة الجامعية الكبرى بذكرى وفاة ابن

الهيثم. وقد شهدت القاهرة منذ أكثر من تسعمائة سنة تشييع جنازته فى غير احتفال من قبة كان يقيم فيها على باب الجامع الأزهر ، إلى قبر يجهل التاريخ موضعه .

فى مصر كانت حياة ابن الهيثم وفى مصر مثواه وفى مصر ألف أكثر مؤلفاته ، وقد اتفقت الآراء على أن ابن الهيثم من الطراز الأول من الرياضيين والطبيعيين فى الشرق والغرب .

أما ابن الهيثم الإنسان فقد كان على ضآلة جسمه ، وافر الذكاء راجح العقل ، كثير التصانيف .. وكان أيضا زاهدا سامى النفس ، محبا للخير .

نماذج تكاد تكون اسطورية ولكن مثل الشيخ مصطفى عبدالرازق تستوقفه هذه النماذج ... أقول مرة أخرى : (شبيه الشئ منجذب إليه) .

لقد كان عالما .. وكان أديبا .. وكان مفكرا .. ومن هنا قدر العلماء والأدباء والمفكرين واحتفى بهم ، وكتب عنهم فالفضل يعرفه ذووه .

★ ★ ★

وممن كتب عنهم إمامنا الشيخ مصطفى عبدالرازق ، «ابن تيمية» الفيلسوف شيخ المجددين فى الإسلام :

كثيرا ما أردد جملته الغنية الرائعة : (ماذا يستطيع أعدائى أن يفعلوا بى ؟ إن جنتى وبستانى فى صدرى . إن سجنونى فسجنى خلوة ، وإن نفونى فنفيى سياحة .. وإن قتلونى فقتلى شهادة .. ماذا يستطيع أعدائى أن يفعلوا بى؟) .

فى الواقع ، فعل به أعداؤه كثيرا ... لقد عرفوا مفتاح نفسه فلم يكتفوا بالسجن بل ارتكبوا فى حقه ما هو أدهى ... حرموه القلم أداة الكتابة ، وحرموه كتبه .. لقد جرحوا (صدره) وعاثوا فى بستانه . سجنوه مرات ... حبسوه فى قلعة دمشق عامين وحبسه آخرون فى الجب بقلعة الجبل ومعه أخواه سنة ونصفا ، وسجن بحبس القضاة سنة ونصفا ثم أخرج إلى الاسكندرية وحبس فى برج ثمانية أشهر وفى سنة ٧٢٠ حبس فى دمشق خمسة أشهر وثمانية عشر يوما ، ثم اعتقل ثانية بدمشق سنة ٧٢٦ فى قضية زيارة المشاهد وقبور النبيين .. وبقى سجينا بضعة وعشرين شهرا حتى وافه الأجل .

هذا العلم الجليل الذى لاقى العنت من المحسوبين على الإسلام فى عصره ، يقول فيه الذهبى :

(حفظ الحديث ورجاله وصحته وسقمه مما يلحق فيه .. وأما نقله للفقه ومذاهب الصحابة التابعين فضلا عن المذاهب الأربعة

فليس له نظير .. وأما معرفته بالملل والنحل فلا أعلم له ، فيها ، نظيرا .. وعربيته قوية جدا ومعرفته والتفسير والتاريخ معجب عجيب) .

هذا العالم الجليل يقول صاحب (فوات الوفيات) ، (أنه اجتمع بالسلطان فأكرمه إكراما عظيما وشاوره فى قتل بعض أعدائه فأبى الشيخ ذلك وجعل كل من آذاه فى حل !!) هذا هو الفرق ... والحضارة هى الفروق .

كان الإمام ابن تيمية من بحر علمه عسيرا على عوام البر ، يسيرا على الخبير بالغوص ولآلئ الأعماق حتى غدا عارفوه يقولون: (لو لم يكن للشيخ تقى الدين من المناقب إلا تلميذه الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية صاحب التصانيف النافعة السائرة التى انتفع بها الموافق والمخالف لكان غاية فى الدلالة على عظمة منزلته) .

السؤال : أين أعداؤه ؟ راحوا .. انداحوا ... لم يبق لهم أثر وليس لهم ذكر ، إلا أن يكون ذميما .. ولكنه عاش تاريخا فى التاريخ .. عاش وخلد شيخا للمجددين فى الإسلام .. يحتفى به ، إماما ، ويحتفل به ، موقفا ، العظيم مصطفى عبدالرازق .

★ ★ ★

صفحة أخرى من سفر إمامنا مصطفى عبدالرازق .

كان الشيخ مصطفى عبدالرازق أديبا موهوبا ولا أدل على هذا من اختياره البهاء زهير ليكتب عنه كتابا كاملا يقول فى مقدمته :

كان موقع وزنه الموسيقى ونغمه يستثير فى نفسى أريحية وطربا حتى لتأثر بذلك ذوقى ، فهو يهفو فى البيان إلى نوع من الأنغام والوزن) .

الإمام الأديب وقف وقفة طويلة عند الشاعر البهاء زهير ... لماذا ؟

نبدأ معه عند العماد الأصفهانى سنة ٥٩٧ هـ والقاضى الفاضل سنة ٥٩٦ هـ باعتبار الأول عمدة المنشئين والثانى شيخ البلاغة .. وكان الاثنان أكثر ذيوعا من البهاء زهير وإن كان البهاء أيسر مدخلا وأعذب أسلوبا كما يقول إمامنا الأكبر ، حيث ابتدع فى الشعر والإنشاء نمطا جديدا خرج به عن التقاليد المرسومة فى صور المخاطبات ، وفى الأساليب فهو موجز لا يحب الإطناب .. وهو مقتصد في زينة اللفظ وهو نزاع إلى الوضوح والبساطة فلا يرضى كثرة المجاز والكناية وهو عدو للجمود على نظم فى البيان تقتل مواهب الإبداع والتفنن .

يقول فضيلة الشيخ مصطفى عبدالرازق (هذا المذهب الجديد فى صلاح الأدب العربى لم يلق فى ذلك العصر ما يمده ويقويه ، ولم يكن البهاء زهير بفطرته السمحة وخلقه الوديع رجل كفاح يجاهد متحمسا فى سبيل دعوة لمذهب جديد) .

بل بلغ الأمر أن المؤرخين أهملوا شأن البهاء فى ديوان الانشاء فلم يرووا شيئا من رسائله باستثناء رسالته فى الرد على كتاب لويس التاسع ملك فرنسا إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب فلم يذكرها إلا الإسحاقى فى تاريخه ، ثم أوردها المقريزى فى خططه ، ونقلها على مبارك باشا فى الخطط التوفيقية .

إنى أحس ألم الأديب فى الشيخ مصطفى عبدالرازق وهو يلمس إغفال القلقشندى ، فى كتابه « صبح الأعشى» رسائل البهاء زهير .. رنة الألم ألمسها فى قوله :

(لست أعرف شاعرا نفخت مصر فيه من روحها مانفخت فى البهاء زهير ، فهو مصرى فى عواطفه ، وفى ذوقه ، وفى لهجته إلى الغاية القصوى ، وإن كان مولده فى بلاد الحجاز) .

من أجل ذلك كله : وضع كتابه عن البهاء زهير (الشاعر المصرى إحياء لذكرى رجل جدير بأن يحيا بيننا تذكاره) .

لمسة وفاء طبيعية منه .. وبعد أن أثنى على بحثين آخرين لأستاذين فاضلين ، أعلن أن له ، فى أدب البهاء زهير وجهة أخرى تسوغ له نشر رسالته عنه ، وهذا مغنم لنا وإضفاء وثراء .. ومن فى مصر لا يطرب لهذه الأبيات التى رقرقها البهاء زهير وقد شفه الحنين إلى :

سقى واديا بين العريش وبرقة
من الغيث هطال الشابيب هتان
وحيا النسيم الرطب عنى إذا سرى
هنالك أوطانا إذا قيل أوطان
بلاد متى ماجئتها جئت جنة
لعينك منها كلما شئت رضوان
تمثل لى الأشواق أن ترابها
وحصباءها مسك يفوح وعقيان
فيا ساكنى مصر تراكم علمتم
بأنى مالى عنكم الدهر سلوان
وما فى فؤادى موضع لسواكم
ومن أين فيه وهو بالشوق ملآن

★ ★ ★

نشأ البهاء زهير فى مدينة (قوص) بالصعيد وهى باب مكة واليمن والنوبة وسواكن .. وهى من قديم الزمان منبع العلم والعلماء . يقول الإدفوى فى كتاب : (الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد) .

إن بقوص ستة عشر مكانا للتدريس .

يقول إمامنا الأديب (إن الروح المصرية تتجلى فى البهاء زهير فى أوج قمتها وبهائها والدليل ما قدمه من نماذج شعره .. وفيه من فكاهتها المحببة قول البهاء لصديقه :

لك يا صديقى بغلة
ليست تساوى خردلة
تمشى فتحسبها العيو
ن على الطريق مشكلة
وتخال مدبرة إذا
ما أقبلت مستعجلة
مقدار خطوتها الطو
يلة حين تسرع أنملة
تهتز وهى مكانها
فكأنما هى زلزلة

أشـبهتها بل أشـبهت

ك كأن بينكـما صـلة

ومن مصرياته أقصد تعبيرات البهاء زهير ، المصرية التقليدية:

إياك يدرى حـديثا بيننـا أحـــد

فهم يقــولون : للحيــــطان آذان

من لى بنومٍ أشكو ذا السهاد ، له

فهم يقــولون : إن النـوم سلطان

حـتى الهـجـاء يقـول منه ، فى فكاهة تحـفظ عليـه عـذوبتـه حين يكون غاضبا :

لعن الله صاعدا وأباه فصـاعدا

وبنيـــه فنــازلا واحدا ثم واحدا

الأمثلة كثيرة رقيقة طريفة واختيـاره هذا وراءه ذوق شاعر بل وراءه شاعـر ، فقـد ترك «إمامنا» مـصطفى عـبدالرازق ، قصـائد كثيرة من حقها أن يجمعها ، ديوان .

لقد كان الإمـام مصطفى عبدالرازق أديبا شـاعرا أصـلا ثمَّ تحول النهر إلى النثر والتقى البحر بالنيل .

أما قصة شعره فيفصلها شقيقه على باشا عبدالرازق فى كتاب :

(من آثار مصطفى عبدالرازق)

لست وحدى التى أكتب عنه لقد سبقنى كثيرون لهم أقدارهم وسوف تتحدث عنه الأجيال القادمة لأنه ذخر أمة تطوف به الأقلام تستقى من نبعه وتلتقى على إكباره فلا تروى على كثرة العب وطول الرشيف ، لقد تعددت مجالاته فشملت الفلسفة والأدب والتاريخ والإصلاح فكريا واجتماعيا .. كان موسوعيا وكان مدرسة .. وكان نهجا وكان أسلوبا .. أسلوب شخصية .. وأسلوب كتابة غنية الأعماق واسعة الآفاق .

أول من حاضر فى (الفلسفة) فى الجامعة الأم .. وكتابه (تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية) والذى يسميه من تواضع ، تمهيدا كان ريادة وكان للدارسين ، مرجعا بما فجر من قضايا وناقش من أحكام حتى أصبح هذا الكتاب ، كما يقول الدكتور عاطف العراقى ، لا غنى عنه للمشتغلين بالفكر الفلسفى الإسلامى حتى أيامنا المعاصرة على الرغم من أنه صدر منذ أكثر من نصف قرن .

ويكفى أنه دحض حجج غلاة المستشرقين ضد الفلسفة الإسلامية أمثال رنان Renan وتنمان Tennemann وكوزان Coushn ودوجا Dugat ومونك MMink وجوتييه Gauthier.

كما ناقش الشهرستانى فى كتابه (الملل والنحل) وابن خلدون فى (المقدمة) .. يقول عنه الدكتور إبراهيم مدكور رئيس مجمع اللغة العربية :

قل من توفر له من المعانى الإنسانية السامية ما حظى به مصطفى عبدالرازق : سماحة فى غير مَنّ ، وصفاء فى غير تصنع .. يتسم بتواضع صادق يملأ النفوس مهابة فكان كما قال شاعرنا القديم «يغضى حياء ويغضى من مهابته» .

يروى الدكتور إبراهيم مدكور تاريخا له دلالته ومعناه .

عندما اختار الشيخ المراغى وهو من هو ، جوار الله لم يجدوا خيرا من الشيخ مصطفى عبدالرازق لملء المكان ولكنه لم يكن وقتئذ من أعضاء هيئة كبار العلماء وينص قانون الأزهر وقتئذ على وجوب الاختيار من بينهم وكان الشيخ مصطفى عبدالرازق فى ذلك التوقيت يشغل منصبا رفيعا آخر فرأت الحكومة أن تعدل القانون فعارض الدكتور إبراهيم مدكور ، هذه السابقة ، لأن التعديلات إن جلبت خيرا حينا فقد تتخذ ذريعة أحيانا أخرى لفتح أبواب شرور كثيرة .

وهنا يقول عن الدمث الراقى مصطفى عبدالرازق :

أشهدكم على أن الزميل والصديق لم تسؤه معارضتى لهذا فى مجلس الشيوخ بل قدرها قدرها وحرص بعد أن تولى مشيخة

الأزهر على أن نتناول طعام الغداء سويا على انفراد فى بيته وكانت لنا أحاديث ما أحلاها وأعذبها ، واتسم كعادته بالحكمة والاعتدال .

أقول إنه أبيض الصفحة من طهر ، قوى الشخصية من رسوخ لا تسوؤه المعارضة .. لا تقيمه وتقعده ففى القرآن الكريم سورة كاملة اسمها (المجادلة) وكان الرسول صلى الله عليه وسلم كريما متفهما فلم يضق بمجادلة زوجة جاءته تشتكى زوجها وتحتكم إلى رأيه واستهلت السورة بالآية الكريمة (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما) إذن كانت هناك مجادلة ومحاورة ..

ليس غريبا يا رسول الله أن يضعك عالم ليس من أتباعك ، وبعد أربعة عشر قرنا ، على رأس أعظم مائة فى العالم .

بقيت كلمة .. كان الدكتور إبراهيم مدكور صديق عمر للكبير العظيم مصطفى عبدالرازق عاشا معا فى هولندا وفرنسا ثم جمعتهما مصر الأم ومع هذا عارض منتصرا للشرعية ، تعيين صديقه الحميم ، بالتعديل .. على أن مصطفى عبدالرازق نفسه اعتذر من أول الأمر .

كلاهما موقف للقدوة تعتز به ، وشموخ نفسى ، للأسرة أن تتأسى به وصفحة مشرقة مشرفة للرجال .

عارض الدكتور إبراهيم مدكور فقط ، مبدأ وجوب احترام الحكومة القانون وهو يعلم ويسجل أن العظيم مصطفى عبدالرازق (أحاط بالثقافة الإسلامية إحاطة شاملة : لغة وأدبا ، تفسيرا وحديثا وفقها ، علما وفلسفة ونهل من حياض الثقافة الغربية وأقام فى فرنسا خمس سنوات طالبا وباحثا أو استاذا ومدرسا فجمع بين الثقافتين العربية والفرنسية ، ولاءم بين القديم والجديد) .

ومن الطريف أن إمامنا مصطفى عبدالرازق أستاذ المنطق والفلسفة عقب هذا طلب إليه تلميذه الدكتور على النشار أن يكتب مقدمة لكتاب السيوطى الذى قام بتحقيقه فقال فى مقدمته : (صرفتنى الأقدار عن حياة المنطق إلى حياة ليست منطقية) وكأنه يعتذر وهو لم يسع إلى المنصب ولكن المنصب سعى إليه إنه استاذ الريادات وابن البيوتات ، وفخر المناصب ..

حتى (رنان) أشد المتعصبين ضد الإسلام والعرب بل ناصبهم العداء وأمعن فى الافتئات ، حين فند أقواله الشيخ مصطفى عبدالرازق لم يتخل عنه هدوؤه ودماثته فوصفه بأنه (يذهب فى البت إلى حد الشطط) .

★ ★ ★

وصفه الدكتور توفيق الطويل قائلا : (عاش إيمانا عميقا يضيئه نور من العلم غير ظنين ، برئ من اللفظ النابى والمسلك الجارح والميل الحقود ، تأبى على دواعى الحقد والتعصب والهوى ، وفاض سماحة وجودا ، وانبعث صفاء ونورا) .

وكتب عنه الدكتور عثمان أمين (كان استاذنا يعتقد أن هنالك شيئا فوق العلم وفوق الفن . وهذا الشئ هو ما يطلق عليه اسم «الأخلاق» وكان يرى أن الأخلاق ينبغى أن تكون فنا للحياة) أى قاعدة لسلوك الشخص مع نفسه وبإزاء الله والناس .

قارن برتراند راسل بين من وهب عقلا ذكيا دون أن يكون له وجدان شاعر .. وبين من وهب الوجدان وحرم التأمل الدقيق .. وفضل ذا العقل ولكنه أثر من جمع الموهبتين معا ..

أقول : لقد جمع إمامنا الأكبر مصطفى عبدالرازق ' الموهبتين .

ونقف عند كتاب «من آثار مصطفى عبدالرازق» :

الحقيقة أن الكتاب ليس واحدا بل عدة كتب ، فهو يضم :

- كتاب «صفحات من سفر الحياة» .
- كتاب «الواجب» الذى ألفه جيل سيمون .

- مقالات السفور .

- مذكرات مسافر - مذكرات مقيم - متفرقات .

فى هذا الكتاب كتب المقالة الأدبية الجميلة الرقيقة ، وكتب الأبحاث العلمية الدقيقة والعويصة أيضا ، ومنها أربعة أبحاث «ثلاثة فى الأدب قبل الإسلام» والرابع عن «الشعر العربى قبل الإسلام» .

وفى الكتاب أو فى «مذكرات مسافر» يوميات من حياته فى مصر .. فى الريف .. فى المدينة .. فى أحوال البشر .. في العقول وطرائق التفكير .

وصفحات مثلها عن أكس ليبان - جريفويل - باريس - لندن .

ألف الإمام مصطفى عبد الرازق جماعة من الممتازين من طلبة الأزهر ، وكانت تجتمع فى داره . يقول الدكتور طه حسين فى مقدمة الكتاب :

«أشد ما يعجبنى ويروعنى أن مصطفى عبدالرازق كان يفتتح الجلسات فلا يزيد على أن يسمى ويقرأ الفاتحة على طريقة استاذه الشيخ محمد عبده فى كتابه «رسالة التوحيد» ثم يدعهم يتحدثون ويستمع» .

أقول : دماثة أن يكون المجلس مجلسه والبيت بيته ثم يفتتح الجلسة ويكتفى بالاصغاء . إن مجرد الاستماع لون من الكرم النفسى ، فهو استقبال رأى .

وكما كان وفيا للشيخ محمد عبده كان وفيا للإمام الشافعى ، ويذهب مذهبه فى الفقه ، ويرى الوفاء له ، دينا عليه .

يقول الدكتور طه حسين : «أثر هذا الوفاء للشافعى فى حياته العقلية ، وفى منهجه الفلسفى تأثيرا شديدا ، ففتح له أبوابا من العلم لم تفتح لأحد من قبله من علماء المسلمين» .

ويقول الدكتور طه حسين : «لم أعرف قط قلبا أبر بفقير ، ولا نفسا أرق لذى حاجة ، ولا يدا أسرع إلى العطاء ، من قلب مصطفى عبدالرازق ونفسه ويده» .

أقول إذا كان الأبن سر أبيه فقد كان مصطفى باشا عبدالرازق فى عين عارفيه كأبيه حسن باشا عبدالرازق ، وقورا مهيبا دمثا مصقولا ، كما كان والده حسن باشا عبدالرازق ممثلا لمديرية المنيا فى عهد الخديوى اسماعيل فى مجلس النواب ثم فى مجلس شورى القوانين الذى حل محله وعلى امتداد ثمانية عشر عاما .. وكان حسن باشا عبدالرازق

قطبا فى حركة الإصلاح الدينى والسياسى والاجتماعى فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

وهكذا جمع مصطفى باشا المجد من أطرافه .. ورثه كابرا عن كابر .

كان قصر عابدين قصرا منيفا كأعظم ما تكون قصور الملوك . وكان قصر آل عبدالرازق قصرا منيفا كأعظم ما تكون قصور الباشوات والكبراء . وكان آل عبدالرازق وآل محمد محمود فى عيون المصريين وقلوبهم وتاريخهم أعظم كثيرا من الملوك وأخلد واحب .. إنها مصر .

كان القصران - قصر عابدين وقصر آل عبدالرازق - فى مكان واحد من ساحة عابدين ، لكن طلاب الحاجات كانت وجهتهم قصر آل عبدالرازق وكأن كلا منهم يقول لصاحب القصر :

أعباءه أحملها فسيد قومه
من بات يحمل عنهم الأعباء

كان طلاب المنيا القادمون إلى القاهرة للالتحاق بالجامعة يكتبون فى استماراتهم فى خانة «ولى الأمر أو المراسل» .. كانوا يكتبون «بيت عبدالرازق فى عابدين» ولا تعليق .. هنا يستريح الكلام ويتكلم الصمت .

بالطبع كان قصر عبدالرازق من أعظم المنتديات السياسية في العاصمة .

لقد زاحم إمامنا مصطفى عبدالرازق فى شبابه - أى فى بدايته - أهل النهاية ، كما قالت مجلة «المنار» جـ ١٥ فى ١٩٠٣/١٠/٢٢ .

لقد كتبت عنه أديبا أو على الأصح شاعرا وعارفا بالشعراء وخاصة البهاء زهير .. واليوم أكتب لمحات عن الكاتب صاحب القلم الرفيع .

ومن لطائفه الأدبية ، قوله يصف بدينا : «وما كنت لأعيب امرءا رمى الله بالبركة فى أطراف جثمانه فاهتزت وربت» ص ١٨٠ .

وتحت عنوان «صيحة مزعجة» قال :

«أصدرت حكمدارية العاصمة منشورا تحرم فيه كل صياح فى الشوارع سواء كان نداء بائع على سلعة أم صياح شكاية أو ألم . ولعلها حرمت أيضا على أهل النعمة هتاف السرور» .

إنه يذكرنى بأبى العلاء حين عاده الطبيب فى مرضه ووصف له

فرخا صغيرا فربت عليه ساخرا وقال : «استضعفوك فوصفوك فهلا وصفوا شبل الأسد ؟» .

ويقول مصطفى باشا الذى أنعم الله عليه بالثراء العريض فى تواضع أو فكاهة لست أدرى :

«لقد قرأت فى الجرائد فصولا معجبة من رحلة حسنين بك ، لكننى لم أر الكتاب فإنه ارستقراطى فى الكتب غالى الثمن إلى الحد الذى تنكره الديمقراطية ..» ص ٤٥٤ .

كان عالما وكان أديبا وكان شاعرا وكان أستاذا للفلسفة وكان بحق وفخر إماما أكبر .

الشيخ محمد الغزالى
حين يكون عالم الدين ، علامة عصر

كان إماما .. وكان إمامه .. وكان فى عصره علامة .. وكان قيمة ومكانة .. وقد استحق هذا كله بالفكر والرأى والعلم والدين وأسلوب حياته الزاخرة .

كان كما يقول فى كتابه (الإسلام فى وجه الزحف الأحمر) : (لقد آمنت بالله عن استدلال وبصر وتطواف فى آفاق السموات والأرض ، وتفنيد للشبهات ونسف للريب)

وهو أفق عزيز لا يرقى إليه إلا أولو العزم .

ثم وصف الإسلام أجمل وصف فى كتابه :

(مستقبل الإسلام خارج أرضه كيف نفكر فيه) :

(دين قوى تكمن قوته فيما يشتمل عليه من حقائق .

معقول لا يأباه فكر سليم .

جميل لا يصد عنه ذوق لطيف)

واجهه قائل : أنا مع اليسار الإسلامى !

يقول الشيخ الغزالى : فلبثت مليا ثم قلت : الإسلام دين ليس له يسار وليس له يمين ، إنه نهج فذ ، يخالف المغضوب عليهم كما يخالف الضالين ...

قال : أعنى أننى مع رأى أبى ذر رضى الله عنه ..

فتفرست فيه ثم أجبته : إننى أعرف أنك شيوعى فهل أنت مع أبى ذر فى الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ؟

هل أنت مع الرجل الصالح فى أداء الفرائض من صلاة وصيام وترك المناكر من خنا وبغى ؟

هل أنت مع أبى ذر فى الإيثار والمرحمة فلا تبقى لديك فلسا لأنك أسرع الناس إلى البذل والمواساة وطلب الآخرة ؟

إن أبا ذر رضى الله عنه عاش زاهدا مجاهدا لم يخذل الإسلام فى موطن، ولا نكص فى معركة ، بل كان أصرح الناس رأيا ، وأشدهم فى الله بأسا ، فما أنت وأبو ذر ؟ ..

قال : أنا أتابعه على رأيه فى المال ، إنه يحرم ألا يستبقى أحد عنده فوق حاجته ..

قلت ضاحكا ! أحسبك تكلف الآخرين بهذا الرأى ، أما أنت فما أحسبك تتنازل للفقراء عن قصر ملكته بطريقة ما ، أو مزرعة جاءتك ولو بطريق الميراث .

لقد ظننتم أبا ذر شيوعيا والرجل بعيد عن هذه النزعة إنه مسلم صالح يتبع القرآن والسنة ولا يعدل بهما شيئا فى الأولين والآخرين .

والمسلمون كلهم يرون أنه فى الأزمات التى تهدد الإسلام وتهز أركانه يجب ألا يدخر أحد ، نفسا أو مالا .. وقد كان جمهور المؤمنين فى الأيام العصيبة – مثل غزوة العسرة – يتنافسون فى دعم الجهود الحربية ، فمنهم من يخرج من ماله كله ، ومنهم من يخرج من ماله ، نصفه ، ومنهم من يبذل القناطير المقنطرة .

وكذلك كانوا يبذلون فى أيام السلام ، فلا يدعون محروما ولا يضيعون ضعيفا .. ونهضت تقاليد الكرم وخفتت نوازع الشح ، واستقر بين الناس إنفاق ما زاد عن الحاجة ..

لكن شيئا من ذلك لم يعطل آيات المواريث ، ولم يمنع أصحاب الفضول أن تكون لهم مدخرات تنفعهم فى غدهم ، وتنفع ذراريهم من بعدهم ، ولم يختف التفاوت بين الأغنياء والفقراء فى مقادير الثروات التى يحوزونها .

الذى اختفى هو التصور والبأساء ! ربما ظن أبو ذر أن النعماء التى شاعت أن أحدا لم يمسك شيئا يزيد عن حاجته ، وربما سبق إلى ذهنه أنه يحرم الادخار على المؤمن .

إن الشريعة فى البناء ، أخت العقيدة فى الأساس ، ومع الشريعة والعقيدة معا نسير ، ونرفض أى تحريف .

كان الشيخ الغزالى ، يرى الإسلام ، حضارة أقول وهو حضارة يوم احترم الإنسان عقله وروحه ، وجسده أيضا .. حضارة يوم جعل العلاقة بين الإنسان وربه بلا وسيط ، وبهذا الاحترام الكامل للإنسان ، صنع الإسلام حضارته ، لقاء حميما بين المادة والروح حين غلبت الحضارات والأديان قبله ، أحدهما على الآخر .. وقد نفذ إلى هذا الشيخ الغزالى فكان «داعية» حمل هموم الجهل بالإسلام ووقف كالطود الأشم يصد عنه التخرصات والاتهامات والأباطيل ..

يقول فى كتابه (هموم داعية) :

لا أدرى لماذا يخالطنى أحيانا شعور بأنى أعيش فى القرن السابع أيام سقوط «بغداد» ووفاة الدولة العباسية أو بعد ذلك بقرنين أيام سقوط « غرناطة» واختفاء الإسلام من الأندلس .

وإن كنت شخصيا أرى أن الذى اختفى ، الدولة وملوك الطوائف أما الإسلام فهو إلى اليوم آثار شامخة تعيش عليها أسبانيا .

يقول الشيخ الغزالى :

نعم أنا أحيا فى القرن الخامس عشر للهجرة . المسلمون خمس العالم منتشرون فى كل القارات ، يبدو أن هزائمهم ثقيلة كئيبة تنزل بهم ، ومؤامرات لئيمة تحاك لهم ، وظلمات كئيبة تتجه إلى مستقبلهم .. ويستحيل أن يبتسم مسلم مخلص وهو يرى هذا الهوان يكتنف دينه وقومه .

ثم انتقل الشيخ الغزالى إلى السبب :

إنه كامن فى التوافه التى تشغلنا .. إنها الثغرات التى ينفذ العدو إلينا ، منها .

وثغرة أخرى قال بها الخبراء بالتاريخ الإسلامى فى عصوره الوسيطة والحديثة فهم كما يقول الغزالى يكادون يتفقون على أن أضعف نقطة فى الكيان الإسلامى هى : الحكومات .

كم من هموم حملها هذا الرجل ، الداعية .

★ ★ ★

قدس الإمام الغزالى الإسلام ، دينا يعلى العقيدة والعلم والفن والعمل والمال وهى الدعائم الخمس التى تقوم عليها ، الحضارة .

وقد زكاها جميعا الإسلام يوم دعا الإنسان إلى رعايتها ، رعاية جامعة متوازنة يثرى بها فى شمول : روحه وجسمه معافى توفيق رقيق وحقيق .

فهم الشيخ الغزالى الإسلام ، مددا للحضارة وسندا للفنان المتحضر فالإبداع الحق مشحون بمجاهدات روحية وهذا مقصور على من وهب :

- حسن التلقى .
- الرغبة أى التشوف والتشوق إلى ارتقاء درجات أعلى وأرحب من النمو الروحى للإنسان .

(اقرأ باسم ربك الذى خلق) .

إذن القراءة ليست الحروف وحدها ولكن الكون الرحيب و (خلق السموات والأرض بالحق) .

هذه الكلمات مادة لحياتنا فى العلم والفن بعد الدين نصوغ منها بمختلف المواهب صورا شتى .

فتح من الله وفيض هذه الرؤية القلبية .

أفاءها الله على الشيخ الغزالى فكانت حياته ، ترجمة لها فى فعله .

الإنسان المحدوده عنده الإيمان يتمثل فى الشهادتين لأن العالم الحق بالدين كما كان الشيخ الغزالى ، يرى إيمان احساسا كاملا بالكون الشامل كما خلقه الله .

إنه استجابة كل الإنسان لكل الحقيقة .. وقد استجاب .

لم يكن الإمام الغزالى محدودا مغلقا بل كان إشراقا واشعاعا روحيا شأن المؤمن المتفتح العقل والقلب .

إنه إيمان البصيرة .

استماع إلى المعزوفة الكبرى للكون .

وينفتح القلب ويشرب النغم ..

وتتوهج الروح إذ تلمسها الشرارة المقدسة .

ويبصر الإنسان بعد أن رأى .

ما جلست إليه مرة إلا أحسست هذا الإحساس به ، وفيه .

لقد نفذ من عمق إيمانه بالإسلام ودراسته له ، لقد نفذ إلى اعتداد الإسلام بالثراء الداخلى للإنسان من صفاء الذات ورهافتها وكرامتها .

الإنسان فى الإسلام ، موضوع وشخصية .

والمجتمع : فى الإسلام ، موضوع وتشريع .

والعالم : فى الإسلام ، رؤية جامعة .

وهو بهذه الأبعاد كلها حضارة وثقافة وأسلوب رسالة .

وقد نفذ إلى هذا كله فى شمول ورحابة أفق الشيخ الغزالى فكانت حياته توثيقا لهذا المعنى الجامع للإسلام ، وتطبيقا .

ففى كتابه (التراث الفكرى) يطرح ركائز للصحوة من الإغماء القومى الذى نعيش فيه ، يقول الرجل :

١ - النساء شقائق الرجال ، وطلب العلم فريضة على الجنسين كليهما .. وللنساء فى حدود الآداب الإسلامية ، حق المشاركة فى بناء المجتمع وحمايته .

٢ - الأسرة أساس الكيان الخلقى والاجتماعى للأمة .

٣ - للإنسان حقوق مادية ، وأدبية تناسب تكريم الله ، له ومنزلته الرفيعة على ظهر الأرض .

٤ - الحكام - ملوكا كانوا أم رؤساء - أجراء لدى شعوبهم يرعون مصالحها الدينية والدنيوية ووجودهم مستمد من هذه الرعاية المفروضة ومن رضا السواد الأعظم بها وليس لأحد أن يفرض نفسه على الأمة كرها أو يسوس أمورها استبدادا .

٥ - الشورى أساس الحكم .

٦ - الملكية الخاصة مصونة بشروطها وحقوقها التى قررها الإسلام .

٧ - أسرة الدول الإسلامية ، مسئولة عن الدعوة الإسلامية وذود المفتريات عنها .. ودفع الأذى عن أتباعها حيث كانوا .

٨ - اختلاف الدين ليس مصدر خصومة واستعداء .

٩ - علاقة المسلمين بالأسرة الدولية تحكمها مواثيق الإخاء الإنسانى المجرد .

١٠ - يسهم المسلمون مع الأمم الأخرى - على اختلاف دينها ومذاهبها فى كل ما يرقى ماديا ومعنويا بالجنس البشرى .

سبب آخر أضافه كتابه (الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر) .

التاريخ الإسلامى سجل لعمل أمتنا بهذا الدين وعملها له ورفعها لمناره وحياطتها ، له لا تطفئه الرياح الهوج .

هذا الإمام الغزالى سنة ٨٩ وفى سنة ١٩٩٥ جعلت وزارة التربية والتعليم مصر كلها ... تاريخها كله على مسار العصور التاريخية : مادة اختيارية أى يمكن إسقاطها .. لتفريغ النشء من المضمون كما يريد أصحاب المصلحة .

هذا حين تشبث العدو بمواريثه التى كيفتها أطماعه الحديثة .

يقول الشيخ الغزالى فى كتابه (الحق المر) :

الغريب أن اليهود رفضوا العنوان العلمانى لدولتهم الدينية .

واستحبوا اسم إسرائيل ليكون رمز الولاء والانتماء والتشبث والوفاء !!

على حين طولب المسلمون باستدبار قرآنهم ونبوتهم - مناهج وزارة التربية حذفت الآيات القرآنية التى تتناول دسائس اليهود ضد الإسلام واستجلبت العلمانية ليتم تحت شعارها .. تغيير الفقه والتشريع وتغيير الأدب والتربية ، وتغيير العلاقة بالله ومنع الاستمداد من وحيه ! المطلوب ارتداد يتم بالتدريج أو الطفرة حسب الظروف والأحوال) ص ١٠٥ .

يقول الشيخ الغزالى فى كتابه (مستقبل الإسلام خارج أرضه).

لابد من الولاء للدين .. ولاء يضفى الاحترام على رجاله فلا يتحدث حاكم عن عالم انتقده : إنه الآن مرمى فى السجن كالكلب.

يقول الشيخ الغزالى وهو يتمزق (لم أسمع فى طول الدنيا وعرضها حكاما يصفون علماء الدين الرسمى فى بلدهم بهذه الكلمات الوضيعة) ص ١٠٦ .

ويأسف (أن رسالة الأزهر مشلولة فى هذا الجو المكفهر) ص ١٠٦ .

ولكنه شأن المؤمنين والمصلحين لا ييأس من رحمة الله .. فهو يدعو فى أفق مفتوح وبيان مشرق وذكاء احساس وذهن معا إلى العلم سلاح العصر . وضرب مثلا فى كتابه (الطريق من هنا) سبق اليابان أمريكا فلم تعق الهزيمة العسكرية الهائلة ، اليابان فى الحرب العالمية الثانية عن الإنتاج المكثف والصناعات المتطورة فى ميدان الرادار والكمبيوتر مما أرادت أمريكا أن تحتكره !!! وانطلقت اليابان انطلاقة جعلت منها الدولة الإليكترونية الأولى فى العالم كله ..

هنا يقول الإمام الغزالى : (فى كتابه : الطريق من هنا) .

هل الذكاء اليابانى وحده وراء هذا النجاح ؟ كلا إن الاستقرار النفسى والاجتماعى فى طول البلاد وعرضها كان نعم العون فى ذلك المضمار كأن الحكومة جسد روحه الشعب أو كأن الشعب جسد روحه ، الحكومة لا أنشطار فى عزم ولا اختلاف على هدف ، ولا تحاقد على منصب) ص ٣٣ .

وهو فى كتابه (مستقبل الإسلام خارج أرضه)

يدعو إلى تعلم الدراسات الإنسانية وإلى دراسة العلوم الحديثة ففى الدراسات الإنسانية كما يقول جوانب كشافة لأغوار النفس وطبائع الجماعات البشرية لا معنى لتجاهلها .. وفيها جوانب تتفق

مع وجهات نظر إسلامية ليست مما يرتضيه السلفيون اليوم ، وهذه لا معنى للضراوة فى محاربتها ، وفيها جوانب محايدة لا ضد الدين ولا معه ، فما قيمة مخاصمتها .

وفيها جوانب ينكرها المسلمون كافة ، وقد ينكرها أهل الأديان جميعا ، فهذه تحارب بوسائل علمية لبقة ، ويصرف أهلها ، عنها ، بالإقناع لا بالسلاح ، حتى لو كان السلاح بأيدينا ، فكيف ونحن عزل مستضعفون ؟

وفى رأيه أن الدروس التى تسمى دينية ، تكاد تكون صفرا من الحقائق المثيرة ، وما يكترث بها إلا الدهماء ، وهذا التخلف يضر الإسلام ويلحق به هزائم شنعاء بين الطوائف المستنيرة .

وقادة الفكر السلفى يوم يجوسون أقطار الغرب وحصيلتهم فقيرة فى الدراسات الإنسانية والفسلفية ، فلن يجدوا من يفتح لهم أقطار قلبه ، بل لن يجدوا من يفتح لهم نافذة صغيرة !!

ألا فليدرس السلفيون الثقافات الإنسانية كلها إن صدقوا النية فى خدمة الإسلام !!

أما العلوم الحديثة فيكفى أن الشيخ الغزالى عندما كان فى ملتقى الفكر الإسلامى بالجزائر ، سمع الدكتور «موريس بوكاى» يتحدث بحماس ظاهر عن الإسلام ! إنه طبيب فرنسى مشغول

بالدراسات الإستشراقية ، وقد راعه أن القرآن يتحدث عن تخلقات الجنين فى بطن أمه بدقة علمية تنادى بأنه من السماء نزل ! وإلا فمن أين لمحمد هذه الحقائق الطبية المقررة ؟

كما لفت نظره أن حديث القرآن عن بدء الخليقة لا يصطدم بما يؤكده العلماء المعاصرون على حين يجئ حديث العهد القديم محفوفا بشوائب كثيرة .

والريبة التى تكونت فى النفوس من حديث الكتاب «المقدس» عن الكون والحياة ، استخفت كل الاستخفاء فى الأسلوب القرآنى.

ومن ثم فإن الشيخ الغزالى يحتم (تدريس الفيزياء والكيمياء والأحياء والجغرافيا وبعض الأوليات فى الجيولوجيا والفلك . إنه أمر يحتاج إليه المشتغلون بالدعوة حتى لا يصعد مجنون منبرا ويكذب باسم الإسلام وصول الأمريكيين إلى القمر ! ص ١١٠

طلب إليه أناس فى «أوغندا» يحتفلون بالمولد النبوى أكثر العام فلم يشأ أن يرد ، دعوتهم بل لباها وتقبلها فى سماحة ورحابة أفق..

قال له صاحبه : ماذا ستصنع ؟

قال : هـــؤلاء يجتـمـعـون على حـديث فى الإســلام أو على تــلاق لذكر الله ، تحت عنوان المولد ! ليس فى حسابهم أكثر من هذا !

وبعد المحاضرة قال له صاحبه :

إنك ما حدثتهم عن بدعة الاحتفال بالمولد ، وقال أحد المنسوبين إلى العلم :

ولا عن خرافة التوسل !!

قلت : الحقائق التى آخذهم بها ستطرد فى صمت ماعداها ، كما يدخل الماء فى الزجاجة فيطرد منها الهواء ليحل محله ! إن مهمتى التنوير لا إلصاق التهم وحشد الأدلة لاثباتها كى ألقى الناس بعد ذلك فى جهنم ، أنا مرب لامدع عام .

وقال آخر : لاحظت أن جمهرتهم يسدلون أيديهم فى الصلاة ! قلت : دعهم على ما ألفه من مذهب مالك ! إننى أريد شغلهم بالزحف الاستعمارى على أرضهم ودينهم ولن يعاقب الله أحدا أسدل يديه .

إن الدين مهدد بالفناء ، بل لقد تقلص عن بقاع واسعة ، فعلقوا الناس بالأهم وخوفوهم من الأدهى .

أقول : لقد ظلم الإسلام من أتباع يجهلونه ، أكثر من أعداء

يتحيفونه أو كما يقول الشيخ الغزالى: لأن ناسا لهم أمزجة شاذة، ومعارف ضحلة هم الذين يدعون إليه ويعرِّفون به .

إنهم يخوفون ولا يبشرون ، وينفرون ولا يؤلفون ! ويلزمون الناس بمالا يلزم .

والواقع أن من أسلم من رجالات الغرب وسيداته ، سبقت لهم الحسنى بما تيسر لهم من بحث وإطلاع وجهد خاص .

إن العقل الأوربى من أقرب العقول إلى الإسلام ، وقد فقد ثقته فيما لديه من مواريث روحية أو مدنية ، بيد أنه ليس مغفلا حتى يفتح أقطار نفسه لأناس يعرضون عليه باسم الإسلام قضايا اجتماعية أو سياسية منكرة .

إن الأوربيين بذلوا دماء غزيرة حتى ظفروا بالحريات التى ظفروا بها ، فهل يقبل أحدهم أن تعرض عليه عقيدة التوحيد مقرونة بنظام الحزب الواحد ، ورفض المعارضات السياسية ، ووضع قيود ثقيلة على مبدأ الشورى وسلطة الأمة ؟

والمسلم الذى يعرض دينه كما يقول الشيخ الغزالى بهذا اللون من الفكر أهو داعية لدينه حقا ؟ أم جاهل كبير يريد أن ينقل للناس أمراضا عافاهم الله منها ؟

من المسلمين اليوم من تتصبب عرقا لتقنعهم أن الكيمياء علم

جليل ، وأن الإمامة فيه من أخصر الطرق لخدمة الإسلام ، فإذا هم يهربون منك كى يتقعروا فى بحث عن حرمة الذهب للنساء أو عن ضرورة قراءة الفاتحة وراء الإمام أو عن وجوب الوضوء على من لمس امرأة !!

هذه الحماقة تشبه فى الغباء من يعرض عقيدة التوحيد مقرونة بضرب النقاب على وجوه النساء! من يسمع فيه ؟ ويروون فى هذا أحاديث موضوعة يبرأ منها رسول الله عليه السلام .

وهنا ، تند عن الشيخ الغزالى هذه الصرخة الحزينة : ما أكثر القمامات الفكرية بين شبابنا !

حبس الفاروق عمر بن الخطاب ثلاثة : ابن مسعود ، وأبا الدرداء ، وأبا مسعود الأنصارى قائلا (قد أكثرتم الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

ولهذا كان معاوية يقول : عليكم من الحديث بما كان فى عهد عمر فإنه كان قد أخاف الناس فى الحديث عن رسول الله عليه السلام .

حتى أوائل الشهور العربية غدت بالخلاف حولها ، مهزلة .

فعيد الفطر نختلف فى توقيته .. والتذبذب فى إثبات الهلال على مدى يومين أو ثلاثة ، أمر صارخ الدلالة كما يقول الشيخ

الغزالى وأثره على الوحدة الإسلامية لا يمكن إنكاره ! وتجاهل ذلك كله شئ لا يطاق .

قرأ الرجل لجمع من علماء الفلك أن الهلال سيولد علميا يوم كذا ساعة كذا ، وأن رؤيته قبل ذلك مستحيلة ! وماهى إلا فترة وجيزة حتى قرأ أن شهود عيان قد رأوا الهلال المرتقب !!

وهنا يقول :

أحد أمرين ، إما أن الشهود واهمون ، وإما أن الفلكيين مخطئون ، وليس هناك احتمال ثالث ! إن القمر يسير فى مداره بسرعة مضبوطة لا تزيد ولا تنقص ، إنه لا يحث الخطى أحيانا ليقابل منتظريه ، ولا يتمهل ليزدادوا شوقا إلى لقائه !! الأمر كما قال ربنا :

(هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب .. ما خلق الله ذلك إلا بالحق) .

والجملة الأخيرة حاسمة فى أن سير القمر يتم بالحق لا بالفوضى وأن هذا السير إذا تم اكتشافه بطريق يقينى فلا مجال بعد ذلك لعبث !

وفى مرارة ساخرة أو سخرية ممرورة يقول الشيخ الغزالى :

الواقع أنى أشعر بحيرة عندما أطالع فى الصحف كلاما لفلكيين يجزمون باستحالة رؤية الهلال ، ثم أسمع بعد ذلك أن الهلال رؤى فى كذا وكذا من البلاد !!

إننى أطالب بتحقيق علمى وعالمى فى هذه المأساة ! فإما غيرنا مراصدنا وعلماء نا لثبوت قصورهم ، وإما عاقبنا شهودا رأت عيونهم مالم يولد فى أفق ، ولم يثبت له وجود ! إن الصمت على هذا التناقض لا يجوز . ص ١٠١ كتاب مستقبل الإسلام .

★ ★ ★

ولا يكتفى الشيخ الغزالى بطرح المتناقضات والاختلافات .

لقد طرح الشيخ الغزالى كيفية تعلم الإسلام .. فهو قد لاحظ أن القضايا الدينية تدرس (مفردات مفكوكة) أو (أجزاء منفصلة) .

نتكلم عن الزواج والطلاق والأصح أن نتكلم عن موضوع جامع هو (نظام الأسرة) نحكم فيه الحديث عن الإرادة الحرة والولاية والكفاءة .. فإذا فرغنا من هذا انتقلنا نقله طبيعية إلى نظام الحكم واختيار ولى الأمر وقضية الشورى وأهل الحل والعقد وقاعدة الأمر والنهى وحراسة الحق والتواصى به .

يقول الرجل (إن هذه العناصر كلها تدرس مبعثرة مع أنها جميعا معالم الحكم الإسلامى ، ومحور علاقة الأمة بالدولة . ونشأ عن بعثرتها غموض فى فهم وظيفة الدولة ، وقصور فى فهم كل عنصر على حدة .. ووجدنا عندنا من يفهم الشورى داخل إطار الاستبداد الفردى ، ومن يفهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قدرة على إلقاء عظة ! ومن يتصور حراسة الحق لا تعدو النكير على بعض البدع ! ومن يحسب التعاون بين مستهلكين أو منتجين عملا مستوردا من الخارج ودراستنا لمئات النصوص من الكتاب والسنة خضعت لهذه الرؤية الجانبية المبتورة ومن ثم تخرجنا غير كاملى التسليح فى مواجهة الغزو الثقافى الذكى الذى قدم برامج جيدة التصنيف والترتيب ، سريعة فى تلبية التقدم الحديث) .

لقد اجتمع على ديننا وتاريخنا القصور فى تعلمه وإهمال تاريخه من جهل به .. لقد وقف الشيخ الغزالى فى كتابه (الحق المر) عند كتاب الأستاذ عبدالحليم الجندى (القرآن والمنهج العلمى المعاصر) ونقل عنه خطابا صادرا إلى الخليفة هشام الثالث (٤١٨- ٤٢٢هـ) أيام ازدهار الأندلس وسط ظلام العصور الوسطى فى أوربا .

والخطاب :

من جورج الثانى ملك انجلترا وفرنسا والنرويج إلى الخليفة هشام الثالث بعد التعظيم والتوقير سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضه الصافى معاهد العلم فى بلادكم العامرة ، فأردنا لبلادنا اقتباس هذه الفضائل لنشر العلم فى بلادنا التى يحيطها الجهل من أركانها الأربعة .

وقد وضعنا ابنة شقيقتنا الأميرة «دوبانت» على رأس بعثة من بنات الأشراف الانجليز ..

من خادمكم المطيع «جورج»

كم يؤكد مثل هذا الخطاب ثقتنا بأنفسنا ونظرتنا إليها وكم تكون خسارتنا فادحة إذا غاب عنا هذا الخطاب مع غيره عندما يصبح التاريخ مادة اختيارية ؟!!

فى الوقت الذى تشن علينا حرب المفتريات لتشويه معالم تاريخنا ، دينا ودنيا .. وهذا الموقف يفرض علينا كما يقول الشيخ الغزالى ، جهدا مضاعفا للحفاظ على أنفسنا وتاريخنا ومقوماتنا كلها ، ولا يسوغ أن نكون عونا لعدونا فى إهالة التراب على حقائقنا وآثارنا .

ويتقاضنا ذلك إعادة النظر فى تاريخنا العملى والحضارى والسياسى وجعل دراسته ركنا ثقافيا لا نافلة عارضة .

حين يراد بنا ، ولنا ، تفريغنا من التاريخ أى المضمون المعنوى والقيمى ، يتمسك عدونا بتاريخه على علاته وعلى انتحالاته وادعاءاته التى ينزلها منزلة الحقائق ثم ينطلق من هذا التاريخ بل يسخر العلم «للتاريخ الموضوع» .

يقول الشيخ الغزالى نقلا عن الأستاذ درويش مصطفى الفار أن آرثر چيمس بلفور ، وزير خارجية انجلترا وعد بفلسطين ، عالما يهوديا صهيونيا ، فى الكيمياء ، هو الصهيونى الروسى حاييم وايزمان الذى كان يعمل استاذا للكيميا العضوية فى جامعة مانشستر بانجلترا وذلك مكافأة له عن اختراع طريقة لصناعة سائل الأسيتون من دقيق الذرة . وكان ذلك لسنة ١٩١٦ فأنقذ المجهود الحربى للحلفاء فى الحرب العالمية الأولى ، وكانوا فى حاجة إلى هذا السائل .. ورفض وايزمان مكافأة مادية وطلب أن تكون مكافأته (مجرد) وعد من حكومة بريطانيا لإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين !!

وانطلاقا من البعد الثالث عند الآخرين كما يدل عليه الموقف السياسى لاستاذ الكيميا ، يرسم الاستاذ الغزالى خطة اصلاح مزدوجة أمام الغارات المتتابعة علينا فى صور شتى .

إن الصحوة الإسلامية تتطلب :

* لفت المسلمين إلى الحقوق الإنسانية ، الاجتماعية والاقتصادية التى يتضمنها الإسلام ، والتى تعجز عن تقديم مثلها المذاهب المحدثة كلها ، وبذلك ينصرف المخدوعون عن إتباع فلسفات باطلة ، ويعلمون أن دينهم فيه الوفاء التام لأشواقهم النفسية والاجتماعية والسياسية .

* أن تكون ثقافتنا المذاعة والمنشورة قائمة على التقريب لا المباعدة ، والرتق لا الفتق إن الألف مليون مسلم تشيع بينهم أخطاء فكرية وخلقية فاحشة وهل استمكن منهم أعداؤهم إلا لهذه الأخطاء المستقرة ؟

* أن العلاقات الرسمية بين المسلمين جميعا تفرض علينا ألا تكون هذه العلاقات سببا فى تقويض الإسلام ونقض دعائمه !

* الدول التى تشجع الهجرة إلى أرضها وتغلق الأبواب فى وجوه المسلمين الوافدين !

فلماذا لا نعاملها بالمثل ؟ أما آن الأوان لوضع قوانين أو تقاليد للعمالة المنتشرة بين دول الخليج كلها ، حتى تشعر الدول التى تكثر فيها المذابح بين المسلمين أنها محاسبة ؟؟.

يقول الشيخ الغزالى (إننا - دون تشريع قائم) كان يجب أن نؤثر اخوان العقيدة وأن نهدم المعابر التى أقامها التبشير فى بعض الأقطار عن طريق الأيدى العاملة غير المسلمة ..

وأخيرا يقول بإنشاء مكاتب فى وزارات الخارجية العربية للعناية بالقضايا والأقليات الإسلامية واتخاذ مواقف إيجابية فيها .

فإذا فرغنا من كتاب (مستقبل الإسلام خارج أرضه) إلى كتابه (تراثنا الفكرى) نراه فى ميدان الصحوة الإسلامية التى تمثل هدفه الأكبر ، يطرح فكرة إنشاء جهاز ، ذى نشاط مزدوج ، كليهما يصارع الآخر فى القدرة واليقظة .

النشاط الأول يقوم على الأسس الآتية :

* سبر الارتقاء الثقافى والإحاطة بالآماد التى بلغها غيرنا حتى نعرف من نخاطب ؟ ومذا نقول ؟

* إدراك المستوى العمرانى والصناعى والحضارى الذى يسود العالم من حولنا .

* دراسة القوى العسكرية التى حظى بها غير المسلمين ودراسة التيارات السياسية هذا فيما يتعلق بالخارج .. أما الداخل فأهم الخطوط التى وضعها الشيخ الغزالى :

* دراسة الكون على أنه أهم ينابيع الإيمان ، وأن حسن استغلاله سلاح اقتصادى وعسكرى خطير .

* غربلة التراث الإسلامى واستبعاد المدسوس عليه .

* ابراز القمم العلمية فيه والأئمة الإعلام لبث الثقة والتعريف

بالدور ، والإشارة إلى القدوة فإن بعض الاحتلال الذى نعيش فيه يرجع إلى افتقاد القدوة فى السنين النكدات على حد تعبير الغزالى.

هذا الجهاز الراصد الكشاف يؤثر الشيخ الغزالى أن يكون بعيدا عن الأضواء مكتفيا بنظر الله إليه كما ينبغى أن يكون مساعدا لجميع الأجهزة الإسلامية القائمة مثل مجمع البحوث فى مصر .. ورابطة العالم الإسلامى فى السعودية .

وفى مسيرة الصحوة الإسلامية ودعوة الغزالى للإصلاح المزدوج فى الداخل والخارج طالب فى كتابه :

(حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة) .

بإعلان إسلامى لحقوق الإنسان :

بعد أن درس الأديان الأخرى وتاريخ أقوامها دراسة دلت عليها المواجهة التى عقدها فى كتابه (ليس من الإسلام) بين أعداء الإسلام وبين تعاليم الإسلام ومنها :

التسامى وإصلاح النفس وفقا لضمير مهذب يحمل على تقوى الله فى السر والعلانية .

ومنها الأخوة والمساواة ويقرن هذا باضطهاد الملونين فى أمريكا عقب الحرب العالمية الثانية كجزء من سياسة الدولة تنص

عليه الدساتير المحلية فى كثير من الولايات !! مسجلا فقرات من دستور ولاية (مسيسبى) منها :

كل من يطبع أو ينشر أو يوزع منشورات مطبوعة أو مضروبة على الآلة الكاتبة أو مخطوطة باليد تحض الجمهور على اقرار المساواة الاجتماعية والتزاوج بين البيض والسود ، أو تقدم إليه حججا واقتراحات فى هذه السبيل يعتبر عمله قبحا يعاقب عليه القانون ويحكم عليه بغرامة لا تتجاوز خمسمائة دولار أو بالسجن مدة لا تتجاوز ستة أشهر أو بالعقوبتين معا !! .

هذه أمريكا من نصف قرن .

وفى وثيقة قدمت ١٩٤٨ إلى الأمم المتحدة تحت عنوان : (نداء إلى العالم) نصت الجمعية الوطنية لترقية الشعب الملون : على أن تشريعات مماثلة لتشريعات ولاية مسيسپى مطبق أيضا فى فرچينيا وكارولينا الشمالية وجورجيا وفلوزيدا ..

ويقضى القانون فى ولايات كثيرة بعزل المسافرين البيض عن المسافرين السود فى عربات السكك الحديدية والسيارات ، وبفصل المرضى البيض عن المرضى السود فى المستشفيات والمصحات والسجون والمصانع .

بل بلغ من هوس الفصل بين الجنسين أن الكتب المدرسية الخاصة بالطلاب الزنوج توضع بمعزل عن الكتب الخاصة بالطلاب البيض !

وأنه لا يجوز للزنوج أن يدخلوا أو يخرجوا من الأبواب نفسها التى يدخل منها البيض ويخرجون .

والأعجب من هذا على بشاعته وفداحته وقسوته أن الكنيسة لم تعجز فقط عن مكافحة هذا الحيف ، بل شاركت فى إقراره ! وأسهمت فى عاره :

(دخل مواطن من جمهورية «بناما» الأتقياء إلى كنيسة كاثوليكية فى واشنطون ، وفيما هو مستغرق فى صلاته ، سعى إليه أحد القسس وقدم إليه قصاصة من ورق مكتوبا عليها عنوان كنيسة كاثوليكية !

وحين سئل القس عن السبب الذى من أجله ارتكب هذا التصرف ، أجاب : « إن فى المدينة كنائس خاصة بالزنوج يستطيع هذا المرء الأسود أن يقف فيها بين يدى ربه) .

ولما صدر قانون الولاء للدولة لحمايتها من أصحاب الميول المتطرفة ، كان يكفى لطرد الموظف من خدمة الحكومة أن يعرف عنه عطف على الزنوج أو الفقراء !!

وهنا يوجه المحققون إلى الموظف المتهم هذه الأسئلة الثلاثة :

١ – هنالك شك فى أنك تكن عطفا على الفئات المحرومة ، هل هذا صحيح ؟

٢ – ما شعورك تجاه عزل الزنوج وفصلهم عن المواطنين البيض ؟

٣ – هل دعوت أنت وزوجتك فى يوم ما ، زنجيا إلى بيتك ؟

والرد بالإيجاب على هذه الأسئلة ، يعنى أن الموظف خصم للدولة يجب أبعاده عن مناصبها !!

★ ★ ★

يقول الشيخ الغزالى :

(شتان بين أولئك الرقيق التعساء فى الحضارة الجديدة ، وبين أسلافهم الذين عاشوا فى أرض الإسلام ، ولم ينلهم – على تقلب تاريخه – بعض ما يعانيه السود من البيض فى العالم الجديد .

بل إن الرجل الأبيض يقف فى الصلاة وراء أمام أسود اللون ، قدمه فى محراب الامامة ، علمه وفضله .

وما ذلك إلا أثر الإسلام ونضج تعاليمه المتوارثة .

ما أعظم الإسلام دينا ودولة إذا استهدينا حكمته .

وما أبعد الفرق عند المقارنة .

لقد دعانا الشيخ الغزالى إلى جمع الشتات مستشهدا بكلمة سمعها سائح مسلم فى الأندلس :

المسلمون قامت لهم دولة عندما كانوا لله خلائف ثم طردوا من هذه الديار عندما أصبحوا على ثراها ، طوائف .

وللشيخ الغزالى من كتابه (علل وأدوية) هذه النفحة من نفحات اليقين :

يقول علماء المادة : إن الطبيعة لا تعرف الفراغ .. وهذا صحيح فالإناء الخالى من الماء ، مملوء بالهواء .. ترى هل الفؤاد الخالى من الله فارغ من كل شئ ؟ كلا ..

إنه مملوء بشئ آخر حتما .. مملوء بالأثرة أو الحقد أو عاكف على عبادة صنم حديث . والأصنام الحديثة فى عصرنا كثيرة من بينها الثراء والجاه والشهرة وسائر الشهوات العاصفة . ص ٦٨

أقول والطريق إلى هذا فى مقدمته : النفاق .

وقد وصف الرسول عليه السلام ، الرياء بأنه شرك .

لقد أشار الإمام الغزالى فى كتابه (حصاد الغرور) إلى أن :

(الدين بالنسبة لنا نحن المسلمين ليس ضمانا للآخرة فحسب .. إنه أضحى سياج دنيانا وكهف بقائنا) . ص ٧

لقد عرض الشيخ الغزالى فى كتبه لكثير من العلل التى نشقى بها ولكنه لم يكتف بتشخيص الداء بل فكر فى الحل .

ففى كتابه (الحق المر) يقول للذين يتحدثون عن الديون :

* إن الثروة المصرية الموجودة فى البنوك الأجنبية فى الخارج يتحتم أن تعود ويقول :

آن الأوان لمحو تقاليد السرف والترف ومقاتلة المخدرات والمسكرات جميعا .

* عند التأمل سنجد أن الدول الفقيرة سدت ما عليها ولكن ما دفعته ذهب فى الفوائد الربوية وفى رواتب الخبراء الأجانب الذين يصحبون المشروعات الإنمائية .

أى أن الدول الغنية تقوم بأعمال سرقة وتعزيز .

لقد كانت مصر بعد الحرب العالمية الثانية دولة دائنة فكيف جعلوها مدينة عملتها هابطة .. كيف جعلوا العملة النفيسة ، خسيسة ؟ ص ١٦ .

أقول هل من جواب على هذا السؤال الدامى ؟

★ ★ ★

شغلنى الإبحار فى كتب الغزالى ومواقفه أن أسجل رأيه فى المرأة أى فى حقوق المرأة المسلمة .. نفتح كتابه (الحق المر) ..

فى كلمات سجل الإمام الغزالى : (أن للمرأة أن تخرج للصلوات الجامعة خمس مرات فى اليوم .

.. وأن تخرج إلى حوائجها فى الأسواق والمحال التجارية ..

.. ولها أن تخرج مع الجيش إذا كانت لديها مهارة عسكرية أو طبية أو هندسية) ص ٦٠ .

مستندا فى هذا إلى عصر النبوة خير القرون يقينا ..

أما عصور الانحراف أو الجهالة فلا يقاس عليها .

★ ★ ★

وهكذا كان الامام الغزالى فى حياتنا ..

كان جهادا وكان عتادا ضد الظلم والجهالة .

كان رأيا راشدا ورؤية متجددة وكلمة مسموعة ورأسا مرفوعا كان الغزالى فى حياتنا علما رافدا .. وعملا رائدا وشخصية جامعة وارفة الظلال ..

وهو بهذا كله وبرحيله ومثواه بالبقيع ، إشارة تقول :

لقد تقبل الله منه (إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ..) سلام عليه بما أدى وأوفى .

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نُزُلا) .

شخصية لا تنسى
الأستاذ محمد فؤاد عبدالباقى

إنه كان فى العقد التاسع من عمره ولكنك كنت تستطيع بسهولة أن تحذف من عمره ربع قرن ، فقد كان لايبدو عليه من سنيه الطويلة العامرة غير ستين .. بل إن نشاطه وطاقته العقلية والجسمية تتفوق به أو يتفوق بها على ابن الخمسين ، أما طموحه العريض فينقص بدوره حلقة أخرى من عمره .. فهو فى اهتماماته وإيجابياته ومطامحه ابن أربعين ولا يزيد ..

رجل عجيب أليس كذلك ؟ .. وعندما نعرف تاريخ حياته يزداد عجبنا ولا يتبدد .. إن بداية حياته لا تسلم ، إذا أخذنا بمقاييس منطق العقل والأشياء إلى النهاية ولكن لماذا أوحى إليك حكما أو رأيا خاصا قد ترى غيره .. لنبدأ معا من البداية . إن الرجل الذى نتحدث عنه ولد فى ٨ مارس سنة ١٨٨٢ لأبوين مصريين ، أما الأب فمن بلدة (قمن العروس) من أعمال الواسطى بالصعيد الأوسط وأما الأم فمن بلدة برنبال إحدى بلاد بحرى الكثيرة ، وهو الابن البكر لأبويه . وقد نشأ فى القاهرة فى حى السيدة زينب إلى

أن بلغ الخامسة من عمره ثم سافر مع أسرته إلى السودان وكان والده وكيلا للإدارة المالية بوزارة الحربية ، واستقرت الأسرة فى وادى حلفا ثم حدثت معركة ود النجوم (وود النجوم اسم قائدها السودانى وقد قتل فى المعركة) وقد حدث بعد هذا أن غادر عميد الأسرة المصرية وادى حلفا إلى أسوان وبقيت الأسرة هناك سنة ونصفا .. ودخل صاحبنا فى هذه الأثناء مدرسة أسوان الابتدائية. ثم هبطت الأسرة القاهرة حيث تنقلت فى سكناها بين أحياء العباسية وبولاق والبغالة من أحياء القاهرة الشعبية . وفى سنة ١٩٢١ توفى الوالد .

وفى القاهرة دخل محمد فؤاد عبدالباقى الذى نعرفه اليوم مجامع الاستشراق فى أوربا وترجع إليه فيما أشكل من مسائل الدين الإسلامى ، مدرسة عباس الابتدائية .. وعندما بلغ امتحان الشهادة الابتدائية سنة ١٨٩٤ ، رسب القسم الفرنسى بأجمعه بها فخلفها إلى مدرسة الامريكان فى حى الأزبكية American Mission حيث ظل هناك سنتين .

وفى سنة ١٨٩٩ ترك مدرسة الأمريكان . واشتغل مدرسا بمدرسة جمعية المساعى المشكورة فى مركز «تلا» للغة العربية ولكنه تركها بعد فترة ليعمل ناظرا لمدرسة بإحدى قرى الوجه

البحرى وظل شاغلا لهذا المنصب سنتين ونصفا ضاق بعدها على عادته الملول .

ولو أنه عزف عن التعليم ووظائفه كلية لسهل تفسير الأمر ولكنه وقد يبدو هذا غريبا بل هو كذلك - بعد أن كان ناظرا اشتغل مدرسا .. ولمادة الرياضة .. فى مدرسة أخرى . أليس هذا غريبا .. أعنى النقلة من ناظر إلى مدرس ، ومن اللغة العربية إلى الرياضة ؟؟

على أنه ما لبث أن ضاق بالرياضة أيضا بعد سنة من اشتغاله بها واختار العمل مع الأديب صادق عنبر فى المدرسة التحضيرية الكبرى بدرب الجماميز ومن الطريف أن ناظر هذه المدرسة اشترط لقبولهما فى الوظيفة أن يقوما بإنشاء القصائد والخطب ليقدمها باسمه إلى الخديوى والسلطان عبد الحميد .

ثم أعلن البنك الزراعى عن وظيفة مترجم فتقدم إليها ونجح وعين بالبنك فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٠٥ وقد عمل بهذه الوظيفة طويلا إذا قيست بمثيلاتها التى شغلها من قبل .. فقد ظل بها حتى ٣ اكتوبر سنة ١٩٣٣ بل لعل من المحتمل أن تمتد به أسبابها إلى أبعد من هذا فهو لم يتركها إلا عندما صفى البنك أعماله واحيلت إلى بنك التسليف ..

على أن المدة التى قضاها فى البنك الزراعى تعتبر فترة استقرار فى حياته هيأت له القراءة الواسعة فى الأدب الفرنسي وخاصة فيكتور هوجو ولامارتين كما أقبل على أمهات الكتب فى الأدب العربى فقرأ كثيرا كما حفظ كثيرا ومن محفوظه إلى اليوم (ديوان الحماسة) وفى حياته رجال عمقوا أثرهم فى نفسه وهؤلاء هم (بعد والده) الشيخ مصطفى عبد الرازق والدكتور عبد الوهاب عزام والشيخ رشيد رضا وهذا الأخير يعتبر نقطة تحول فى حياته غيرت مجراها وأعادت تخطيطها لو صح هذا التعبير .

ففى سنة ١٩٢٢ تعرف إلى السيد رشيد رضا صاحب المنار وكان لقاء لم يُقدر له الفراق إلا بعد أربعة عشر عاما .. ولم يكن فراقا بل قدرا خارجا عن إرادتهما فقد توفى الشيخ رضا سنة ١٩٣٦ . وإن الاستاذ فؤاد عبد الباقى ليذكر فيما يطوف به من ذكريات أنه كان يلازم الشيخ رضا ملازمة المريد لاستاذه الشيخ . يذكر أنه فتح له آفاقا واسعة فى علم الدين والسنة ووجهه كثيرا حتى غدا الاستاذ الشيخ فى سنيه الأخيرة يثق بعلمه ويستعين به فى كثير مما يعرض له .

حدث فى سنة ١٩٢٨ أن بلغ السيد / رشيد رضا أن الشيخ أحمد محمد شاكر - ابن وكيل الأزهر وقتئذ - عنده الأصل الانجليزى لكتاب مفتاح كنوز السنة Handbook of early Mohamedian Tradition فأرسل الشيخ رضا ، (محمد فؤاد عبد الباقى) مع ابن عمه إلى الشيخ أحمد محمد شاكر فى بيته بالحلمية فاستعار له الكتاب لمدة أسبوع .. ورأى الشيخ رضا أن يكل أمر تقديره إلى محمد فؤاد عبد الباقى فلما اطلع عليه وبحثه قال للشيخ رضا :

- من الجرم ألا يترجم هذا الكتاب إلى العربية .

- إذن .. لتكن أنت صاحبه .

وهنا قرر محمد فؤا عبد الباقى أن يتوسع فِي الانجليزية فالتحق بمدرسة برلتز ولم ينتظر حتى يفرغ من الدراسة وسيلته إلى الترجمة بل شرع فى الترجمة وهو يدرس وهنا نمسك بمفتاح من مفاتيح شخصية الرجل والارادة الحديدية اللاهبة . أن رأى أمرا احتشد له أو مضى فيه كالسهم يمرق غير مبال بما يكتنف هذا العمل من مشاق .

وقد استغرقت الدراسة والترجمة خمس سنوات أى أنه انتهى من ترجمته ومراجعته فى اكتوبر سنة ١٩٣٣ .

وإلى هنا لم تنته قصة هذا الكتاب فإن لها بقية تؤلف وحدها رواية طويلة فى حياة هذا الرجل ، حدث عندما طلب من الدكتور ونسنك Wensinck كتاب تصريح بالترجمة باعتباره مؤلف كتاب (مفتاح كنوز السنة) أن بلغ من استجابة الرجل له أنه لم يكتف بالموافقة فحسب بل أرسل إليه الفصل الأول من المعجم المفهرس للحديث النبوى . وإذ اطلع عليه وجد به أخطاء كثيرة فضمنها كشفا أرسله إلى دكتور ونسنك فسر لذلك كثيرا وكتب إليه يرجوه تصحيح (بروفات) المعجم .

وإذا علمنا أن المعجم يقوم به أكثر من أربعين مستشرقا فى أنحاء العالم ثم يصحح عملهم مجتمعين الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ، عرفنا قيمة العمل الكبير الذى كان يؤديه الرجل .. قيمة الجهد الذى كان يبذله .. ثم بعد هذا أو قبل هذا قيمة الكسب العلمى من وراء هذا العمل .. وقيمة الكسب القومى . بل أننى لا أبالغ إن قلت إن كتب الاستاذ فؤاد عبد الباقى بما وراءها من صبر طويل وجهد دءوب وطاقة الدقة والاتقان وأشواق حميمه إلى الكمال الممكن بالاستقصاء والتنظيم والتجميع والتبويب والفهرسة .. كتبه بهذا كله إضافة علمية فى ميدان الدين تحسب لمصر وعطائها للإسلام .

نعود إلى كتاب (المعجم المفهرس للحديث النبوى) نتعرف إليه ونعرف عنه شيئا أكثر .

المعجم المفهرس للحديث النبوى يقوم على رد ألفاظ الأحاديث فى أشهر وأصح كتب الحديث وهى تسعة معتمدة .

الصحيحين البخارى ومسلم .

والسنن الأربعة : أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

سنن الدارمى

موطأ مالك

مسند أحمد بن حنبل .

وتتعهد هذا المعجم مؤسسة الاتحاد الأعلى للمجامع العلمية ومقر الاتحاد فى ليدن بهولندا .

Union Academique Internationle

ومن أوائل من قاموا بعملية التنسيق والإشراف على الطبع دكتور ونسنك الذى خلفه بعد وفاته ، منسنج Mensing الذى توفى أيضا بعده ببضعة أعوام .

وقد بدأوا نشره فى أوائل الأربعينات (حوالى سنة ١٩٣٣) وصدر منه حتى الآن واحد وأربعون مجلدا .

وهذا الجهد الضخم لم يستنفذ طاقة الرجل فقد وسعت جهوده العلمية :

ترجمة كتاب (مفتاح كنوز السنة) وقد طبع فى مصر .

وترجمة كتاب (تفصيل آيات القرآن الحكيم) Le Quran Analysa عن جول لابوم Gules le Beame وقد طبع فى مصر .

أما فى ميدان التأليف فله من الأسفار التى ظهرت حتى الآن :

* المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

* اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان . وهو أصح كتاب فى الحديث نظرا لأنه جامع ما اتفق عليه مسلم والبخارى .

* معجم غريب القرآن .. وهو عبارة عن شرح الألفاظ الغريبة التى أوردها البخارى فى صحيحه .. والبخارى بدوره كان قد أخذ هذه الألفاظ من كتاب (مجاز القرآن) لأبى عبيده .

كما قام الأستاذ فؤاد عبد الباقى بشرح وفهرسة كتب :

* موطأ الامام مالك .

* سنن ابن ماجه .

* صحيح مسلم .

كما قام بتخريج الاحاديث الواردة والشواهد الشعرية الواردة فى كتاب «شواهد التوضيح والتصريح لابن مالك» .

وتخريج الأحاديث والشواهد الشعرية فى تفسير القاسمى .

وله من الكتب المخطوطة التى لم تنشــر والتى يحـتــجب باحتجابها ، عنا ، خير كثير .

كتـاب : أطراف الصحيحين وهو من ألف صفحة من القطع الكبير :

وفيه اضطلع بتجميع ولم شتات مواضع أحاديث البخارى . فقد كان البخارى يرد الحديث الواحد فى مواضع عدة حسب المعانى الواردة به ، حين كان مسلم يورد الحديث فى موضع واحد حتى ليصح أن نسمى الكتاب : أطراف البخارى .

والكتاب الثانى : جامع مسانيد صحيح البخارى .

وفيه يورد الاستاذ فؤاد عبد الباقى النصوص المتعددة للحديث الواحد حسب مواضعها فى صحيح البخارى .

كما جمع أحاديث كل صحابى على حدة مرتبا أسماء الصحابة حسب الحروف الهجائية وذلك بعد أن قسمهم قسمين :

الصحابة الرجال

والصحابيات

وعدتهم جميعا ١٩٦ صحابيا .

ومن هنا نستطيع أن ندرك السر فى أن هذا الجهد الصابر قد استغرق ما يربو على ألف صفحة من الحجم الكبير .

ولهذا الكتاب قصة ترويها محاضر المجمع اللغوى سنة ١٩٤٣ بما تضمنته من مكاتبات دارت حوله بين المستشار الفنى لوزارة المعارف يومئذ الدكتور طه حسين وبين المجمع كما تضم التقرير الذى وضعته اللجنة المكونة من الاساتذة أحمد بك ابراهيم .. الشيخ ابراهيم حمروش .. الشيخ محمد الخضر حسين .

ومع ما فى التقرير من تقدير واشادة بالجهد السخي الذى بذل فى الكتاب فقد انتهى الأمر باعتذار عن النشر لأن الكتاب أدخل فى باب السنة منه فى باب اللغة !

ولا يزال الكتاب ينتظر من ينشره من الهيئات لأن تكاليف نشره ينوء بها جهد الفرد .

بل أن من كتبه ما تبنته الهيئات ثم قعدت عن نشره ، واقصد كتابه : جامع الصحيحين .

فقد حدث أن وجه إليه فضيلة شيخ الأزهر المرحوم الشيخ مأمون الشناوى دعوة إلى اجتماع انعقد في ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٠ عن المشتغلين بعلم الحديث وكان الاجتماع مؤلفا من :

الشيخ أحمد شاكر ، والشيخ عبد العزيز الموافي ، ووكيل الأزهر الشيخ عبد الرحمن حسن والشيخ محمد محيي الدين

والشيخ الكوثري (وكيل المشيخة الاسلامية فى الاستانة) والشيخ رضوان والإستاذ محمد فؤاد عبد الباقى .

وبحث المجتمعون موضوع جمع كتب السنة الستة في كتاب واحد وعلى أى غرار يكون الترتيب : واتفقوا على أن يكون ترتيب الكتاب على حسب ترتيب صحيح مسلم .

وفى ١٥ ابريل وكل إلى الاستاذ فؤاد عبد الباقى العمل على جمع أحاديث صحيح البخارى ومسلم مقابل مبلغ ثلاثين جنيها شهريا ، زيد سنة ١٩٥١ إلى أربعين جنيها وانتهى العمل فى سنة ١٩٥٢ بعد أن بلغ ما تقاضاه فيه ألف ومائة جنيه .

ثم تألفت لجنة من ثلاثة مشايخ لمراجعة الكتاب منها الشيخ عبد الفتاح العنانى شيخ المالكية فإذا عرفنا أن هذه اللجنة بدورها تقاضت لقاء المراجعة ٦٠٠ جنيه . أي أن الكتاب تكلف ١٧٠٠ جنيه بين تأليف ومراجعة .

وتسأل أين هذا الكتاب الآن مع شدة حاجة الدراسات الدينية إليه ؟ فأقول : أنه يقبع الآن في خزنة حديدية بالجامع الأزهر .



ننتقل الآن من الكتاب إلي صاحبه لنلتقى بقصص أخرى .

★ ★ ★

ويعتبر الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقى المحدث الوحيد فى مصر بعد وفاة الشيخ أحمد محمد شاكر .

واصفى منابعه الثقافية ، عيون الأدب الغربى وفوق هذا بالطبع الكتاب الأول القرآن ، ثم كتب التفسير والحديث والفقه حتى ليعد (القرآن والبخارى ومسلم) خير ما قرأ على الاطلاق .

كما ورد الأدب الفرنسى ونهل منه كثيرا كما أشرنا من قبل ، فهو يجيد اللغة الفرنسية والانجليزية أيضا وأن كانت صلته بالأخيرة اعتراها الضعف بعد أن فرغ من مهمة ترجمة كتاب (مفتاح كنوز السنة) من الانجليزية إلى العربية . وقد مرت بنا قصة هذا الكتاب مفصلة .

★ ★ ★

على أن هناك كتابا آخر من كتب الرجل له قصة ، فقد حدث عندما كان الشيخ محمد عبده يفسر آية من القرآن أنه كان يأتى بالآيات المشابهة وسأله الشيخ رضا أنى له هذا ، فأجاب الشيخ محمد عبده بأنه يستعين بكتاب عنده فى اللغة الفرنسية كما حدث بعد موت الشيخ محمد عبده أن بحث الشيخ رضا عن الكتاب فى تركته فلم يعثر عليه .. وأفضى بما فى نفسه إلى الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقى فقال له :

- هذا الكتاب عندى فى الفرنسية .

- انقله لى :

- حبا وكرامة .

وهنا قام الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقى بترجمة كتاب (تفصيل آيات القرآن الحكيم) إلى العربية وقدمه إلي الشيخ رضا وكان ذلك سنة ١٩٢٤ .

وفى سنى ١٩٣٤ جاءه قريب للشيخ رضا وقال له :

- لماذا لا تطبع الكتاب ؟

- أى كتاب يا صاحبى ؟

- كتاب (تفصيل آيات القرآن الحكيم) الموجود عند الشيخ رضا .

- وكيف ذلك ؟

- أنا أطبعه لك وآتيك بالمال ثمنا له .

- إذن لك نصفه .

وذهب الرجل وعاد إليه بالعقد ينص على أربعين جنيها ثمنا للكتاب وبر محمد فؤاد عبد الباقي بكلمته وانقده عشرين جنيها .

ومن الطريف أنه أهدى كتاب (تفصيل آيات القرآن الكريم) إلى الأديب المصرى الساخر الاستاذ المازنى فابتسم ابتسامته الشقية

وقال له .. ما شأنى يا صاحبى ؟ قل لى فى أى موضوع هو .. ماذا تريدنى أن أكتب عنه ؟

فقال له ، أنه يتحدث فى كذا وكذا ..

- التقينا .

ثم كتب عنه المازنى فى البلاغ مقالة ضافية ..

ومحمد فؤاد عبد الباقى كان فى مصر مرجع كل من يلم فى كتابته بأمر من أمور القرآن أو الحديث لا يستثنى من هذا كبار الكتاب أو العمالقة . وقد رجع إليه الدكتور طه حسين عندما كتب كتابه (على وبنوه) كما رجع إليه الدكتور هيكل فى كتابه عن عمر ورجع إليه الاستاذ العقاد فيما يتعلق بصحيح الأحاديث .

لم يضن قط على سائل علم . وقد يحبس نفسه ويكرس وقته على سؤال يوفيه درسا وتمحيصا يستند إلى الأصول الوثيقة والمراجع العمدة فى الموضوع وقد يكتب الصفحات ذات الهوامش حتى ليصلح السؤال أو على الأدق ، الاجابة عليه موضوعا متكاملا فيه غناء . والرجل يصنع هذا الصنيع مع كل سائل ولو لم يكن يعرفه من قبل .. أنه لا يفعل هذا من أجل شخصه إنما يفعله إيمانا بحق العلم عليه فهو يعيش فى ميدانه بالرأى

والهداية والمشاركة فى صمت واخلاص لا يحفل بالذكر أو الاعلان .

وظل على السن المرتفعة يسهر فى جلد وصبر على الكتب والمراجع والتصحيح والمراجعة حتى استأثرت به رحمة الله .

★ ★ ★

وحياة الرجل الخاصة تدخل فى باب الغرائب ، فنحن فى مصر نسميه (صائم الدهر) فهو يصوم العام كله لا يفطر فيه إلا يومين اثنين هما : أول أيام عيد الفطر .. وأول أيام عيد الأضحى .

وطعامه نباتى ، فهو أول كل شهر يشترى ٣٠ علبة محفوظة من الخضراوات دفعة واحدة فالفاصوليا ليوم كذا والبازلاء ليوم كذا .. الخ .

وهو يصوم بغير صحور أى أنه يتناول وجبة واحدة كل ٢٤ ساعة . ويبدأ فطوره بملعقتين من العسل الأبيض ثم «علبة اليوم» ثم الزبادى والفاكهة وفنجان القهوة ويكون هذا بالطبع بعد آذان المغرب .

وفى تمام الساعة العاشرة بالضبط يشرب كوبا من الماء . وبهذا تنتهى صلته بالطعام والشراب حتى مساء اليوم التالى ..

وبهذا تتحقق رغبته فى ألا يكلف إنسانا من أهل بيته مشقة ما فى طعامه أو شرابه .

وحجرته الخاصة التى تضم مكتبته الكبيرة بها عدة مناضد على اثنتين منها غطاءات من البلاستيك ومجموعة من الاكواب والصوانى ، بل إن كل شىء فى هذه الحجرة التى تكون عالمه :

الخاص ، مجموعات : الكتب .. المناضد .. الصور .. الأدوية .. الأقلام .. الساعات ..

وعلى ذكر الساعات ، نذكر أنه كان لا يؤقت إلا وفقا للساعة (العربى) فإذا قلت له الساعة الخامسة مثلا قام على الفور بعملية حسابية يعرف بعدها الرقم الذى يقابل خمسة فى الساعة العربى . وعندما تقدم القاهرة الساعة فى بدء التوقيت الصيفى يصر على ألا يقدم ساعته أنه من أنصار الثبات على المبدأ . ويجب إذا ربطتك به صلة واتفقت معه على موعد وقال لك الساعة الثانية مثلا أن تعد نفسك لاستقباله فى الساعة الثالثة بحساب ساعتك فإنه موعده (بالعربى) أى بالساعة العربى التى يحسبها ويسير عليها فالثانية عنده تعنى الساعة الثالثة بحساب ساعتك وعليك وحدك أن تراعى فروق التوقيت ، أما هو فلا يكلف نفسه حتى

التفسير . إن الرجل يفترض فيك الذكاء الذى يفهم ويترجم فى وقت واحد وبسرعة أيضا ..

وهو محافظ فى كل شىء فزيه يتكون من البدلة الكاملة صيفا وشتاء .. لا يستطيع حر الصيف أن ينحى الكرافت أو الدبوس كما لا تستطيع مواضعات العصر أن تمس المنديل الأبيض فى جيبه أو الطربوش القانى على رأسه أو العصا الأنيقة فى يده .

وهو أنيق المظهر ، بل لو اتفق لك أن تراه على سجيته فى بيته ولو على غير ميعاد استرعى بصرك أناقته أيضا فى المنامة ذات اللون السكرى والشريط الأرزق على الأطراف وغير هذا مما فيه انسجام الألوان .

ومن لازماته التى يحافظ عليها زيارة أخته صباح الجمعة من كل اسبوع حيث يقضى يومه ويعود إلى داره فى تمام العاشرة مساء .

وهو زاهد فى الاجتماعات والتعارف ، والرجل يفسر هذا وكأنه يعتذر . إن التعرف إلى الناس تقوم تبعا له على الأثر حقوق لهم والتزامات واجبة الرعاية والوفاء . وليس عندى وقت لهذا ولا أنا أطيق التقصير فيها لو لزمتنى .

وللرجل أولاد وأحفاد كلهم يشغل منصبا مرموقا فى الدولة

ولكن الجدير بالذكر أنه تعهد طفولتهم وصباهم . وقد شهدت منا ضد سيرته معهم حين كانوا يتحلقون حوله يقرأ لهم أو يسمع منهم . فإذا تغيب أحدهم لطارئ المرض سهر على سريره حتى يشفى .

ولعل تحرره وهو المشتغل بالدين وقضاياه ، يرجع إلى نشأته الدينية ، مع أن الأزهر فى وقته كان - يحتكر - أو يكاد - المحدثين والمفسرين ، ويشب اليافع فيه على حفظ الشروح والبطون والحواشى ولكنه لم يمر بهذه التجربة وإن كان حفظ وتفوق مستعليا .

لقد درس أصول الدين حبا فى العلم وقد أفادته تجاربه ورسخت فى نفسه معنى الحرية والتحرر . فابنتاه تعملان ، بل أن عملهما عليه طابع العصر الذى نعيشه فاحداهما كانت مفتشة عامة للرياضة البدنية بوزارة التربية والأخرى كانت مديرة كلية النصر بالمعادى (فيكتوريا سابقا) .

وبعد ، فهذه الجهود السخية العطاء الموصولة الدأب ، وهذه الحياة التى أضت إلى التبتل من أجل الدين فى صورة مشرقة مشرفة هى أجدى عليه وأقرب إلى الله من كثير من القيام والقعود والتعصب الساذج .. هذه الحياة الرائعة بصبرها الصابر ، وتصميمها القادر على التجديد ، **شخصية لا تنسى** .

أمين الخولى المدرسة والمنهج

كان القدماء يسمون العالم الجليل « **المدرسة** » صاحب المنهج والأسلوب أعنى أسلوب التفكير والتعبير معا ، « **الباب** » لأنه يفتح للطالب أبواب العلم . وقد كان أستاذنا الخولى من هؤلاء الأجلاء الذين يفتحون باب العلم ، وباب التفكير وباب النفس . كان طريقا وطريقة . طريقا يهدى الخطى الحائرة ، وطريقة يرشد بها المنهج ويستضئ بها الرأى حتى وإن خالفه .

كان يقوم من تلاميذه مقام سقراط من تلاميذه يناقش ويصول ويجول ويهز الركود فإذا بهم كأرضهم الطيبة إذا اهتزت / ربت ، وانبتت نباتاً يعجب الزراع .

يرى الأستاذ الخولى ، الوفاء للتراث : تنقيته وتحليته وربطه بالحياة . وفى مقدمة هذا اللغة العربية .

يجمع الاستاذ الخولى ، فى اهابه القديم والجديد متلازمين ، يدرس الفقه شابا فى مدرسة القضاء الشرعى ، ويؤلف طالب الفقه ، التمثيليات لجوق عكاشة ويتفتح فى الشرق ، وينفتح بالرحلة على الغرب حتى إذا تصدر للتدريس فى جامعة القاهرة ،

رفض خضوع بلاغة اللغة العربية لعلم الكلام ويؤصلها تأصيلا يعتمد على الاحساس الشاعر والذوق الفنان ويسميها «**فن القول**» فى كتاب هو فلسفة ومنهج ، يهدف إلى أن (يكون درس الأدب وتاريخه على منهج تصححه الخبرة بالحياة والنفس والجماعة ويمثل التقدم الانسانى والرقى العقلى وهذا الكتاب محاولة لتصحيح منهج درسنا للبلاغة التى هى قوام الحياة الأدبية الصانعة والناقدة) .

كما دعا فى كتابه عن الأدب المصرى ، إلى إقليمية الأدب ، ولاقى من أجل هذا عنتا شديدا ، ولكنه أصر على أن (جميع الاعتبارات النفسية والوطنية والفنية تقضى بتوافر العناية بهذا بل تؤذن بافراده وقصر الهمة عليه دون غيره إلا ما يكون من ذلك وسيلة إلى فهم هذا الأدب وتمثله ، أو ما يكون توسعا فى الدرس ورفاهية فيه بعدما لابد للدارس منه) .

وتناول الاستاذ الخولى (مشكلات حياتنا اللغوية) فى سلسلة محاضرات جمعت بعد هذا .. أعلن إزاءها بعد دراسة « أمينة » أن (كل من يحاول إصلاحاً لغويا يجب أن يعمد قبل كل شئ إلى دراسة حياة اللغة ومناهج تطورها حتى يتميز له ، الممكن ، من المستحيل ، ويتبين له ما يتفق مع السنن الكونية وما يتنافر مع

طبيعة الأشياء حتى تأتى إصلاحاته مسايرة لهذه الطبيعة .. وفى موكب البحث تكلم عن اللغة الصوتية واللغة اللفظية ، وبينات اللغة وعصورها .

بل قدم الاستاذ الخولى بين يدى التاريخ كتابه (الجندية والسلم) وهو كما جاء فيه (قطعة من تاريخ الفكر ، فى حياة الجيل الماضى بما هو انعكاس لاتجاهات الجماعة على فرد منها وتفاعل من هذا الفرد مع الجماعة التى يحيا فيها وبها) .

وهذا الكتاب فى الوقت نفسه وثيقة تطور عقلى واجتماعى يصور فيها الفرد ، الجمع .. ويوجه فيه الجمع والفرد .. وكان هذا الكتاب موضوع رسالته الدراسية سنة ١٩١٧ بعد أن سبقه قصتان الفهما للمسرح مثلت إحداهما وهى تصور تأثير الحضارة العربية على أوروبا من طريق أسبانيا ، وأعدت الثانية للتمثيل وهى تصور تأثير الحضارة العربية على أوروبا من طريق بغداد بمثل صلة الرشيد بشارلمان .

فكان كتابه (الجندية والسلم) إبان الحرب العالمية الأولى ذكرى لمجد آباء سلفوا . ولهذا أهدى الكتاب إلى معنى كريم ، أهدى ثمنه إلى مصر المسلمة ، محولا صرير القلم فى الحديث عن الجندية ، إلى آزيز طائرة حربية فى سماء حريتها .

وللاستاذ الخولى فى تفسير القرآن الكريم رأى متميز فهو يقول بـ (التفسير النفسى للقرآن الكريم) يرى أن يفسر القرآن الكريم تفسيراً نفسياً وأدبياً .. وبعد أن وقف وقفات نافذة عند ألوان التفسير النقلى منه والعقلى والعلمى ، يقول كلمته الجامعة : (إن القرآن الكريم من حيث هو كتاب العربية الأكبر وأثرها الأدبى الأعظم فهو الكتاب الذى خلد العربية وحمى كيانها وخلد معها فصار فخرها ، وزينة تراثها .. وتلك صفة القرآن يعرفها العربى مهما يختلف به الدين أو يفترق به الهوى مادام شاعراً بعربيته .

وليس هذا الحس للعرب فحسب بل إن الشعوب التى ليست عربية الدم أصلاً ، ولكن وصلها التاريخ وسير الحياة بهذه العروبة فارتضت الاسلام دينا ، أو خالطت العرب فساطت دماءها بدمائهم، ثم اتخذت العربية أصلا من أصول حياتها الأدبية .. حتى ربطتها بالعربية هذه الأواصر الوثقى ، إلى أن صارت العربية عنصراً أساسياً وجانباً وجوهرياً من شخصيتها اللغوية الفنية ، قد سار لكتاب العربية الأعظم ، وقرآنها الأكرم مكانته بين ما تعنى به ، من دراسة أدبية وآثار فنية قولية فألزمها كل أولئك تناول هذا الكتاب بدراسة أدبية تتفهم بها أصول ما ورثت من تلك

العروبة إن كانت عربية النجار ، أو كانت قد اتصلت بتلك العروبة ، اتصالاً حيوياً قوياً ، دفع شخصيتها وسير وجودها ووجه حياتها .

ومنهجه فى هذا ، وهو استاذ منهج .

* دراسة ما حول القرآن .

* دراسة فى القرآن .

وأفاض فى هذا إفاضة لا يصل فيها الاجتزاء الى اكتفاء بل لابد من الرجوع إلى قوله كاملاً وفاء للموضوع الجليل ووفاء للكاتب الاستاذ .

كما تحدث الاستاذ الخولى عن التجديد والتطور فى ميدان الإسلام فى كتاب عنوانه (المجددون فى الإسلام) .

إن الأديان ليست ضد التطور والتجديد بدليل تجددها وتعددها واختلاف أساليب الدعوة إليها وإن التقت الكليات العامة . تعدد الأديان وتوسعها فى التشريع إنما هو التطور بعينه .

وأسس التطور فى الإسلام يراها الاستاذ الخولى فى : امتداد دعوة الإسلام وحياته امتداداً أفقياً وامتداداً رأسياً معا ... وأرى معه ، أن امتداد الإسلام أفقى إلى مختلف الناس فى جيل ، وامتداد أفقى إلى مختلف الأجيال هو امتداد رأسى عبر الزمان بعد المكان .... وامتداد رأسى فى عمر الانسان من طفولة ومراهقة

وصبا ، ونضج ، واكتمال واكتهال وشيخوخة هى تمام العمر وختامه ..وفى الوقت نفسه بداية حياة أخرى وردت فى الدين وقالت بها مصر القديمة منذ فجر الزمان .

وهنا يشمل التطور حساب البيئات المختلفة وحاجة الدعوة إلى مواءمتها للتقبل والافادة وحاجة البيئات الى ملاءمة الدعوة للاستفادة فى احترام للاجتهاد فيما ليس فى كتاب ولا سنة مما يعرض للحى خاصة فى العصور التى تعقدت فيها الحياة والعلاقات وتعددت المقاييس والمفاهيم .

كما يرى الاستاذ الخولى من أسس التطور فى الإسلام ، اقتصار دعوته فى الغيبيات ، وإراحة العقل من التفاصيل فيها واكتفاءه بالاجمال العام ، فى الإيمان بها .

وهكذا يقف كتابه (المجددون فى الإسلام) دعوة مجددة إلى تلافى اللهث وراء اصطناع المقابلة والمضاهاة بين حقائق العلم وآيات الدين ... فالعلم بقابليته للتغيير ، يحرج هذه المضاهاة ، وأحياناً إلى الحد الذى يجعل نتيجتها عكسية خلافا لما أراده أصحابها .. وقد قرأنا لروبرت هوك Ropert Hook الجيولوجى قوله بتناقض العهد القديم مع العلم الحديث فى مسألة (عمر الأرض) فقد أثبت روبرت هوك أن ما يقوله العهد القديم فى نصه

اللاتينى من أن عمر البشرية سبعة آلاف سنة أو ستة آلاف ، حسب النص الإغريقى يتناقض مع الحقيقة العلمية . أن جوردن تشايلد .

Gordon Child فى كتابه (الشرق الأقدم Most ancent East) وهو يتحدث عن العصر الثلجى ، يعود به إلى أكثر من أربعين ألف سنة . وأن أوربا فى ذلك العصر كانت مغطاة بالثلوج بينما كانت الأمطار تهطل على افريقيا وآسيا فعرفت النبات والأشجار .

وحجة الكاتب المفحمة فى هذا أن الدين أجمل عامداً ما فصله الآخرون فى كتبهم من خلق الكون وتوزيع الأيام وظهور الإنسان وعمر البشرية على الأرض .

على أنى لست ممن يزدهيهم التوفيق بين القرآن الكريم ونظريات العلم الحديث لأن الدين المنزل من عند الله أكبر من العلم المتغير مهما حقق من انجازات .

وإقرار القدماء ، الاجتهاد، وتقريرهم التواتر فيه ، شاهد بضرورة التطور الذى يرفد النصوص بحيوية تحفظ عليها البقاء بل تحفظ عليها إشراقها ، ووفاءها بحاجة الانسان حتى لقد استثنى القرآن الكريم، الضرورات من الأحكام حين تغدو الضرورة

اضطرارا { فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه } ويبلغ القرآن الكريم قمة الذرى فى هذا الباب حين يقول { يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر } .

بمثل هذه الرحمة الغفور ، والمغفرة الحانية ، ينزل الإسلام من قلوب البشر منزلاً لايشائيه شئ من فلسفات الناس أو علومهم ، وإن جلت ، وفى هذا بلاغ وكفاء .

يلمح الاساذ الخولى رأى القدماء فى تشبيه القوى الحيوية التى تضطلع فى عصورها بالتجديد ، بالنبع الصافى العذب السائغ الذى مضى يجرى فى وادى الحياة ، فعلق به فى مجراه ما يعلق عادة ، من أعشاب وطحالب ومواد ذائبة من أرض المجرى، بل قد يتكدس من هذه الأشياء جملة ما يضيق به المجرى ، ويبطئ سير التيار الحيوى ، فتتوقف مياهه ، حتى تركد وتأسن ، فى وقت ما ، وعند مكان ما ، فيحسب من رأى هذا الماء فى زمانه ومكانه المتغيرين إنه كذلك كانت طبيعته دائما مع إنه هو الذى كان فى الواقع نميرا سائغا ، حينما فاض من عينه الأولى .

ويرى الاستاذ الخولى والحق يظاهره ، أن التجديد لا يكفى فيه، ولا يغنى معه ، الإرتحال أو الاقامة عند المنبع الأول ، بل أن

ينحى دعاة الاصلاح هذه العوائق التى تشوب المجرى فى كل موضع ويحولوا دون الانسدادات والمعوقات مرة أخرى .

كان صاحب رأى وصاحب دعوة وصاحب منهج وصاحب أسلوب وصاحب مدرسة . وكان من قوة الشخصية بحيث يتبع الآخرين له بقدرة الجدل فيه . كان استاذ اللغة بالجامعة فأحدث فى تدريسها ثورة ، وهو الشيخ المعمم ربيب مدرسة القضاء الشرعى، لم يحدثها الشباب ممن تعلموا تعليما غربيا بالداخل أو الخارج . ومن هنا بدأ . رأى الأدب شيئا أكبر من البلاغة العربية التقليدية ببيانها وبديعها والصناعة اللفظية . فسمى الأدب (فن القول) واتبع التسمية بالتطبيق فألف كتابه (فن القول) أرسى فيه أصوله وقعد قواعده ، ثم مضى فى محاضراته يمكن لهذا المعنى ويعمقه فى النفوس الناشئة .

ونبع عن هذه (الفنية) فى تفسير القرآن الكريم فارتفع به على الروح المطولة المخلة التى يتطوح فيها الطالب والقارئ بين اللفظ والمضمون ، ودعا إلى التفسير النفسى للكتاب العزيز كما أسلفت .

وكان فى دراسته للأثر الفنى صاحب منهج يحتم وصل الأثر بصاحبه وبيئة قائله ومجموعة آثاره الأخرى حتى تعتمد الدراسة

على كل متكامل فلا تتناقض فى الحكم ولاتتقطع الصلة بين ماض وحاضر وقد طبق هذا فى كتابه عن الامام مالك .

وكان صاحب أسلوب ينفرد به ويعز تقليده لأنه ينبع من قوة شخصيته وعمق إيمانه بما يقول وطاقة الاقناع فيه .

كان صاحب دعوة وصاحب رسالة عاش عمره يدعو إليها وينشر الايمان بها . كانت دعوته إلى (المصرية) المصرية الخالصة التى تدين بمصر عقيدة وتعتز بها وطنا وتستلهمها أدبا . وعن هذا الايمان العميق بمصر الخالدة ومضى فى دعوته الجهيرة إلى (الاقليمية فى الأدب) وصدر عنها فى كتابه (فى الأدب المصرى) .. كان يرى مصر معلما من معالم التاريخ الانسانى لم تختلف عن مسرح الحوادث أبدا مؤثرة حتى فى الضعف السياسى لم تستطع قوة أن تحجب الأضواء عن قسماتها ومميزاتها .

كتب عن شخصية مصر الدينية بما أدت مصر للأديان الكبرى المعروفة من الناحية العقائدية والعملية والتاريخية .

وكتب عن شخصية مصر فى اللغة العربية وهى لغة حادثة بالنسبة إليها فأخصبتها وأغنتها فى الشعر والنثر والنحو والبلاغة بما لم يفعله أحد . وكان آخر ما كتبه فى هذا المجال كتابه :

(مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب) .

وكان بعقيدته (المصرية) وهو صاحب الأسلوب المتين المركز

الفخم يبارك (العامية) ويقف وراء دراسات الأدب الشعبى فى الجامعة . كان يحنو على العامية لأنها لغة الشعب المصرى ومظهر من مظاهر شخصيته . لغة وجدانه .. لغة بثه وكلامه .. لغة حياته اليومية . وهى بهذه الصفة لغة نامية متطورة متجددة حية بقدرتها على التجاوب والانفعال . ومن هنا كان تراثها وهو الأدب الشعبى أمس بنفوسنا وأصدق وقعا فى إحساسنا من أدب الفصحاء الرسمى الذين لم يستطع أصحابه أن يقبسوه الحياة من ذاتيتهم بل وقفوه على الأبواب والعتبات يسترضون ويتقربون طمعا فى الصلات واستدرارا للعطاء فكان معظم شعرهم مدحاً رخيصاً أو هجاء هابطاً أو فخراً كاذباً حتى ذلك (المتنبى) بكبريائه المصطنعة كان طراق أبواب مداحا لا يتورع أن يصرف القصيدة من ممدوح إلى آخر إن حدثته نفسه (الكريمة) بعطاء أكثر .

أنا لا أريد فى مقام التوديع أن أدخل فى التفاصيل فذلك مكانه الدراسة المتعمقة . ولكنى أسجل فقط أن الرجل الذى ودعناه بالأمس كان صاحب مدرسة قوامها الدعوة إلى (المصرية) التى لا يكون الفنان المصرى صادقا مع نفسه وصادقا مع الآخرين إن لم يصدر عنها وينبع منها .

أحد النماذج الكبيرة التى تعلمنا عليها وتعلمنا منها وتأسينا بها .... وهو بهذا كله المعلم الأستاذ .

الاستاذ محمد خلف الله أحمد

ولد بقرية العمرة من أعمال مديرية سوهاج فى ١٠ يونية سنة ١٩٠٤ وفى قرية العمرة نشأ نشأة مصرية عربية إسلامية فحفظ فى طفولته القرآن الكريم وتأثر بما يطبع حياة قريته (العمرة) من تعاليم الدين والأخلاق والتقاليد الموروثة . وكان لهذه النشأة ذات الانطباعات الخاصة أثر فى حياته مع الأيام . فالأديب محمد خلف الله أحمد له أيضا أسلوب فكرى وسلوكى (يقوم على الإيمان والاستقامة والجد وهدوء التفكير والنفور من الجدل ومن الخصومة الجامحة والولوع بالمطالعات الأدبية والصوفية والأنس بشخصيات الورعين والمصلحين) .

وفى هذه الحقبة من تاريخنا شهد شبابه مرحلة مهمة من مراحل التطور القومى ولعب مع رفاقه دوراً فى أحداث ذلك التطور وأذى نفسه مصريا وشاعرا ما شاب الكفاح الوطنى من خلاف جامح فى الرأى انحدر بأصحابه إلى درك كانوا أعلى منه مستوى وكرامة .

وكلون من رد الفعل وتهيئة الظروف انضم الشاب المصرى ربيب (العمرة) إلى (جماعة شرعية سنية فى نزعتها تعاونية فى حياتها توجه أعضاءها إلى فهم الدين من مصادره الأولى قبل أن تثقل كاهله ضروب التأويلات والتفريعات المذهبية) .

وفى سنة ١٩٢٩ سافر فى البعثة العلمية إلى انجلترا فدرس علوم الفلسفة فى جامعة لندن وأحرز فيها بكالوريوس الشرف سنة ١٩٣٤ ودرس علم النفس فأحرز فيه درجة الشرف المعادلة سنة ١٩٣٦ .

وفى انجلترا تفاعلت فى نفسه أنواع من التفكير والمبادئ السلوكية كيفت النموذج الأول الذى شهدته قرية (العمرة) دون مساس بجوهره ....

هناك عبر البحار تفتحت نفسه على انسانية جريحة فى مدنيتها وفى نفسها تحاول مخلصة أن تكفر عن الحرب العالمية الأولى باصلاح ما أفسدته بل بتوقى مابدا فى الجو من نذر الحرب العالمية الثانية فتراوده فكرة ما تلبث أن تملأ عليه نفسه (فكرة العمل على دعم السلام الانسانى عن طريق ابراز العناصر المشتركة بين الأديان الكبرى وجمع اتباعها على كلمة سواء) .

وفى انجلترا أعد رسالة الماجستير فى موضوع (الأحكام الخلقية عند أطفال المدارس وعلاقتها بالعمر العقلى) قبلتها جامعة لندن وأذنت بنشرها ومنحته بها درجة الماجستير .

وفى أثناء دراسته بانجلترا ندب محاضرا بعض الوقت بمدرسة اللغات الشرقية بلندن وانتخب سكرتيرا للنادى المصرى بلندن مدة عامين ونظم بالاشتراك مع زملائه مؤتمرات سنوية للطلاب المصريين فى انجلترا - وألقى عددا من المحاضرات عن نهضة مصر الحديثة فى هيئات الروتارى وبعض الجمعيات الدولية وشارك فى العيد الألفى للمتنبى الذى أقيم فى لندن سنة ١٩٣٦ ونشر فى مجلة الشعر البريطانية بتلك المناسبة مقالا عن (فلسفة المتنبى من شعره) .

وعاد إلى مصر سنة ١٩٣٧ فدرس فى دار العلوم مدة قصيرة ثم نقل فى العام ذاته مدرساً بكلية الآداب بجامعة القاهرة فشارك فى تدريس الأدب والنقد بقسم اللغة العربية بها .. وعهد إليه تنظيم دراسة خاصة لطلبة الماجستير عن « صلة علم النفس بالأدب » وقام برياسة أسرة الشعر وأشرف على تنظيم مهرجاناتها السنوية. وندب لبعض المحاضرات فى معاهد التربية وكليات الأزهر .

ومن خلال محاضراته المشهودة ومقالاته المنشورة وإذاعاته المسموعة كان يهدى صورا من تفكيره وتجربته وفيما هو - بحكم عمله - يشهد تطور الحياة الجامعية فى مصر وكفاح القيم الروحية والفكرية ضد ما يشوبها ويؤثر فيها من أطماع الحياة ومطالبها المادية ويحضر بضعة مؤتمرات إقليمية ودولية ويزور العالم الجديد ويلمس جوانب من تقدمه العلمى والمادى إذ به يشارك فى بحث الخصائص الثقافية وفضائلها وما يمكن أن يكون لها من أثر فى التقريب بين الناس مما يوائم نزعته الانسانية وميله الطبيعى إلى المسالمة والمصافاة .

وحين انشئت جامعة الاسكندرية سنة ١٩٤٢ نقل اليها مدرسا وترقى فى مناصبها العلمية إلى أن أصبح رئيسا لقسم اللغة العربية والشرقية وآدابها سنة ١٩٤٧ وأستاذاً لكرسى اللغة العربية وآدابها سنة ١٩٤٨ . ثم انتخب عميداً للكلية سنة ١٩٥١ وجدد تعيينه فى العمادة مرات - ثم أصبح وكيل جامعة عين شمس .

شارك فى تمثيل وزارة التربية والتعليم وجامعة الاسكندرية والمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب فى عدد من المؤتمرات الدولية كمؤتمرات المستشرقين فى باريس وكمبردج واليونسكو

ببيروت والمؤتمر العربى الثقافى بلبنان والاسكندرية ومؤتمرات الثقافة الإسلامية في أمريكا وباكستان ومؤتمر الكُتّاب الآسيويين والافريقيين فى طشقند ومؤتمر المعلمين العرب .....

وفى سنة ١٩٥٨ اختير ممثلا لجامعة الاسكندرية فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية وجدد اختياره سنة ١٩٦٠ .

وفى سنة ١٩٦١ انتخب وكيلا لمجلس إدارة جمعية الشبان المسلمين بالاسكندرية وعضوا فى مجلس ادارة معهد الخدمة الاجتماعية بها ومقررا للهيئة الاقليمية للفنون والعلوم الاجتماعية بمدينة الاسكندرية .

وعين عضوا بالمؤتمر الاقليمى والمؤتمر العام للاتحاد القومى للجمهورية العربية المتحدة كما عين عضوا باللجنة الفنية الدائمة للفنون والعلوم والآداب والثقافة بالمقر الرئيسى للاتحاد القومى .

والاستاذ محمد خلف الله أحمد عضو المجمع اللغوى . (انتخب عضوا سنة ١٩٦٠) وله فى ميادين الدراسات العربية والإسلامية أحد عشر كتابا وحوالى ثلاثين بحثا ومقالا فى العربية والانجليزية ومقالات منشورة فى المجلات العلمية فى مصر وفى الخارج .

الكتب والبحوث والمقالات المنشورة

أولا : الكتب المنشورة

١ ـ كتاب « الطفل من المهد إلى الرشد » نشرته جماعة دار العلوم بالقاهرة سنة ١٩٣٨ .

٢ ـ كتاب « كيف يعمل العقل » ترجمة فى جزئين (بالاشتراك) نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٤٦ .

٣ ـ كتاب « دراسات فى الأدب الإسلامى » نشر بالقاهرة سنة ١٩٤٧ .

٤ ـ كتاب « من الوجهة الفلسفية فى دراسة الأدب ونقده» نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٤٧ .

٥ ـ كتاب « ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن» تحقيق وتعليق (بالاشتراك) دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥٥ .

٦ـ كتاب « الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة» (مجموعة البحوث التى قدمت لمؤتمر الثقافة الإسلامية فى برنستون ١٩٥٣ ترجمة وتقديم وتعليق مؤسسة فرانكلين بالقاهرة سنة ١٩٥٥ .

٧ ـ كتاب « معالم التطور الحديث فى اللغة العربية وآدابها » سنة ١٩٦١ .

٨ ـ كتاب « حفنى ناصف كاتبا وباحثا » (مجموعة محاضرات) بتكليف من وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٥٥ .

١٠ ـ كتاب بعنوان (الإسلام والحضارة) يضم مجموعة من الأحاديث الاذاعية فى الأدب والاجتماع والثقافة .

عدا عدة أبحاث فى العربية والإنجليزية

١١ ـ كتاب من ثلاث مجلدات فى التربية الدينية لمعاهد المعلمين والمعلمات (بالاشتراك) . طبعته وزارة التربية والتعليم ١٩٥٧ .

ثانيا: البحوث والمقالات المنشورة : (بالعربية أو الانجليزية أو الفرنسية) .

١ ـ بحث بالانجليزية موضوعه Moral Reasoning and Culture . نشر بمجلة كلية الآداب بالقاهرة مجلد ٥ج أ ١٩٣٩ .

٢ ـ بحث بالعربية موضوعه « نقد بعض التراجم والشروح العربية لكتاب ارسطو فى صنعة الشعر » (يوطيقا) .

نشر بمجلة كلية الآداب بالأسكندرية المجلد الثالث سنة ١٩٤٦ .

٣ ـ بحث بعنوان « أضواء على شعر شوقى وحافظ » . مجلة الكتاب (عدد خاص) أكتوبر سنة ١٩٤٧ .

٤ ـ بحث بالانجليزية موضوعه : "Abael - Qahir's Theory in his Secrets of Eloquence القى فى مؤتمر

المستشرقين الدولى بباريس سنة ١٩٤٨ . ونشر فى مجلة فى أمريكا مجلد ١٤ عدد ٣ سنة ١٩٥٥ .

٥ - بحث بالانجليزية موضوعه: as Important Factor in the Development of Arabic Literary Critism Qur'anic Stdies" .

قدم لمؤتمر المستشرقين الدولى المنعقد فى استانبول ١٩٥١ ونشر فى مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية مجلد ٦، ٧ سنة ٥٢، ١٩٥٣ .

٦ - بحث بالانجليزية موضوعه « اتجاهان من القرن الرابع الهجرى فى نظرية اعجازالقرآن .

قدم لمؤتمر المستشرقين الدولى فى كمبردج ونشر بمجلة كلية الآداب بالأسكندرية مجلد ٨ سنة ١٩٥٤ .

٧ - مقال بالانجليزية موضوعه : " Western Interest in the Study of Islam .

نشر فى مجلة الروتارى سنة ١٩٥٤ .

٨ - بحث بالعربية والانجليزية فى « الحياة الأدبية فى مصر الحديثة وعلاقتها بالعالم المعاصر » قدم لمؤتمر الثقافة الإسلامية فى برنستون بأمريكا ونشر

بالإنجليزية فى مجلة "The Muslim World". مجلد ٤٤ سنة ١٩٥٤ .

٩ - مقال بعنوان « هذا مذهبى » نشر فى كتاب بهذا العنوان دار الهلال بالقاهرة سنة ١٩٥٥ .

١٠ - ترجمة المقدمة والفصل الأول من كتاب "Sarton- History of Science" المجلد الأول - مؤسسة فرانكلين بالقاهرة سنة ١٩٥٥ .

١١ - بحث في موضوع « حركة التجديد الشعرى وأثر النقد الأدبى فيها » (من جهود مصر الحديثة فى الميدان الأدبى) .
نشر فى مجموعة المحاضرات العامة لجامعة الاسكندرية فى العام ١٩٥٥ / ١٩٥٦ .

١٢ - مقال بعنوان « ماذا تعلمنا من الغرب وماذا تعلم الغرب منا . مجلة الهلال يناير ١٩٥٦ .

١٣ - مقال بعنوان « أدبنا الحديث ودوره فى التربية النفسية والاجتماعية للأمة » .
عدد خاص لأسبوع شباب الجامعات . مطبعة جامعة الاسكندرية أغسطس ١٩٥٦ .

١٤ - بحث بعنوان « موقف الحضارة الإسلامية من حقوق الإنسان» نشرت بالمجلة المصرية للقانون الدولى ١٩٥٦ - ٢ .

١٥ - بحث ألقى فى مؤتمر الكتاب الآسيويين والافريقيين بطشقند موضوعه الثقافة العربية بين الثقافات الكبرى أكتوبر سنة ١٩٥٨ .

١٦ - بحث بالعربية والانجليزية موضوعه « حرية العقيدة والفكر فى الإسلام » ألقى فى مؤتمر الثقافة الإسلامية فى لاهور باكستان ١٩٥٧ / ١٩٥٨ .

ونشر بمجلة كلية الآداب بالأسكندرية مجلد ١٢ سنة ١٩٥٨ .

١٧ - بحث بالانجليزية نشر فى دائرة المعارف الاسلامية الدولية موضوعه « المراحل الأولى من تطور اللغة العربية الفصحى».

Vol.l. fasc.ix, 1958

ونشرفى مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية (مجلد ٩ سنة ١٩٥٥ .

١٨ - بحث بالانجليزية نشر فى دائرة المعارف الإسلامية الدولية .

Vol.l. fasc.ix, 1958

فى موضوع « علم البديع » ونشر بمجلة كلية الآداب بالأسكندرية مجلد ١٢ سنة ١٩٥٨ .

الكاتب الشاعر الأستاذ عبداللطيف السحرتى (١٩٠٢ ـ ١٩٨٣)

﴿ ياأيتـهـا النفس المطمـئنة .. ارجـعى إلى ربك راضية مرضية ﴾ .

هذه الآية غمرت نفسي بالسكينة . وانهلت عليها فيضا من الرضوان عندما سمعت نبأ رحيل الاستاذ مصطفى عبداللطيف السحرتى ... لقد تأثر فى صدر شبابه بغاندى وكان على مثاله فى السماحة والتواضع وتمثل القيم الحقيقية أدخله الله فى عباده وأدخله جنته ....

السحرتى رحلة طويلة فى العطاء الأدبى امتدت ستة وخمسين عاما ... بدأت بكتابة التراجم التى شغف بها فى العشرينات والثلاثينات (١٩٢٧ ـ ١٩٣٤) مع احترامه للإنسان واعتزازه بالفرد.

ذهب إلى باريس سنة ١٩٢٧ لنيل درجة الدكتوراه فى الحقوق فإذا به يتحول عن دروس القانون إلى الأدب ...

وعاد السحرتى إلى القاهرة واشتغل بالمحاماة وكتب فى (السياسة الأسبوعية) سنة ٢٧ ـ ٣٥ مهتما بالتراجم وأهمها (جيته) والسعدى الشيرازى وروسو ولامارتين .

كما كتب فى جريدة (الوقت) وهى جريدة محلية .. مقالات سياسية واجتماعية . أما المرحلة الثانية هى المرحلة التى اتصل فيها بجماعة (أبولو) فى ربيع سنة ١٩٣٤ . كان مولعا بالصحافة ومن الطريف أنه رأى واجهة إحدى المكتبات وهو فى باريس كتابا عن الكسل La Paresse فظنه عن الصحافة La Presse فاشتراه فى الحال وخلا به فى غرفته وهنا اكتشف الحقيقة .

ووراء هذا قصة طريفة فقد كتب فى السياسة الأسبوعية مقالات بعنوان (الخيال يحكم العالم) وهو مقال طويل تحدث فيه حديثا عابرا عن صور أبى شادى الشعرية فلفته المقال وطلب إلى الأستاذ عبدالعزيز عتيق أن يتعرف إليه ... وتقابلا فى جمعية أبولو فاستقبله حفيا به وعرفه إلى أعضاء الجمعية الحاضرين فى ذلك الحين ومنهم الصيرفى وصالح جودت ومختار الوكيل والدكتور زكى مبارك ....

وكتب السحرتى بعد اللقاء مقالا طويلا فى (أبولو) عن «الرومانتيكية» ومقالا عن ديوان (الألحان الضائعة) للصيرفى وغيرهما .

عهد الدكتور أبو شادى إلى السحرتى برياسة مجلة الإمام فى أواخر سنة ١٩٣٤ وكان صاحب امتيازها وفى هذا الوقت كانت جماعة أبولو هدفا للمحافظين والمجددين على السوداء فكان السحرتى ينافح عنها بالقلم ...

أما الشعر فكانت أولى قصائده (على شاطئ سبورتنج) بمجلة (أبولو) وعندما أصدر ديوانه (ازهار الذكرى) خلا الديوان من هذه القصيدة وقد كتب الدكتور أبو شادى مقدمة هذا الديوان .

وكان اتصال السحرتى بجماعة أبولو وقراءاته النقدية فى الانجليزية واطلاعه الواسع على نتائج هذه الفترة وراء كتابه (الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث) وقد دفعه إلى كتابته أن النقد كان فى ذلك الوقت (قضية مركبة عويصة تحتاج إلى قضاة عدول صارمين فى الحق ولا يستساغ النقد بدفعة من دفعات العاطفة أو نزوة من نزوات النفس أو خطرة من خطرات الهوى ولا بلمحة من الذكاء .

بل لابد من ضمير حى وبراءة من الميل وتجاوب مع روح المنقود واقتران بأثارة اقترن مودة الرجوع إلى جوه وبيئته وشخصيته ودراية ذكية بالأصول النقدية (مذاهب النقد المعاصرة) ص٥ .

والسحرتى من أصحاب الأساليب ولهذا ركز طويلا فى هذا الكتاب على (الصياغة الشعرية) وعلى (الألفاظ الشعرية) (٤٥ ـ ٨٥) وهو يرى الصياغة مواءمة الموضوع تتركب من عناصر الخيال الموسيقى والوحدة والتوازن . والتناسب وتخير الألفاظ تخيراً فنيا وشخصية الشاعر غير المرئية المنسابة بين بعد هذه العناصر) ص٤٦ .

واستمر السحرتى يرفع راية النقد فى مجلة الإمام الدكتور اسماعيل أدهم ، الذى كتب بحثا عن (الزهاوى الشاعر) وبحثا عن (الإلحاد).... وفى سنة ١٩٣٧ طوت الأحداث مجلة الامام ... وقد لاقت معارضة شديدة من رجال الدين ومن المحافظين إلى الحد الذى أدى إلى النيابة العامة حيث سألت الدكتور أدهم عن بحثه (الزهاوى الشاعر) وبالطبع سئل الأستاذ السحرتى كرئيس تحرير المجلة وانتهى الأمر بسلام إذ لم تجد النيابة شيئا يحسب عليه واعتبرت ما جاء فى الموضوع حرية رأى .

ولم يلبث الدكتور أبو شادى أن أصدر عوضا عن مجلة (الامام) مجلة « أدبى» وهى خاصة بأدبه وأدب خاصة أنصاره ومنهم ... إسماعيل أدهم وسلامة موسى والفيومى والسحرتى ..

وكانت منبراً أدبياً رفيعاً كما كانت منبراً للرأى الحر .... كتب السحرتى فيها عن الدستور .

وكتب سلامة موسى (الملك يتولى ولا يحكم) .

وكتب اسماعيل أدهم عن شعر أبى شادى وعن (النسبية) وغير هذا من موضوعات ... وصدر من هذه المجلة بضعة أعداد فقط ...

وفى ١٩٤٦ هاجر المرحوم أبو شادى إلى نيويورك فخلف فراغا كبيرا وهنا انضم السحرتى إلى رابطة الأدباء .. التى كان يرأسها الدكتور إبراهيم ناجى ... وعندما توفى ناجى سنة ١٩٥٢ أسهم الأستاذ السحرتى فى إنشاء (رابطة الأدب الحديث) التى تولى رياستها الأستاذ محمد ناجى إكراما وتكريما لذكرى ناجى وما لبثت الرابطة أن اختلفت معه فأسلمت رياستها إلى الأستاذ السحرتى ... وكان هذا سنة ١٩٥٤ وظل رئيسها أكثر من ربع قرن حتى اختار أكرم جوار ....

وكان السحراى عصب الرابطة بالجهد والمال ... وكتابه (شعراء معاصرون) مجموعة من محاضراته بها ....

أما السحرتى الناقد فكان مذهبه فى النقد يقوم على كشف جماليات النص وإبراز فكرته أى الحكم على الأساسين الجمالى والفكرى ...

وفى نقده الشعر كان السحرتى يقرأ الشاعر ويسمعه معا بل يحاول أن يعيش معه تجربته فلا يفوته الصوت بل الهمهمة ولا تفوته منه الحركة والخفقة ولا تفوته منه النبضة والدفقة .. لا يفوته منه الحالة النفسية ... الطاقة الفنية ... جو الخلق ... قدرة البناء ... درجة الانفعال ... مدى الطلاقة التعبيرية ... الصفاء ... الانسياب الشعورى ... الغنائية .. الرفرفة .. الرفيف ... الأم ... الموسيقى والخيال .... تلاحق الصور وألوانها ووضوحها .. طواعية القافية ... مستوى التفوق من إبانة وتماسك وتكامل وجدة وقوة وصدق وإشراق ... ونفاذ وتدرج ... وتطور ... وتنساب فى أجزاء القصيد موضوعا وشكلا ... وأخيرا النكهة الشعرية كما يسميها ولا يهمه فى هذا نوع أسلوب التعبير أو طريقته فقد أعطى للشاعر الحرية (فى استخدام الشعر المقفى أو الشعر الحر لأن هذا متروك لمزاج الشاعر وطبيعته وقدراته الفنية ... وطبيعة التجربة التى يريد أداءها حتى ليعده تعنتا مطلقا إلزامه بسلوك طريقة بعينها ... إنما العبرة عنده بموهبة الشاعر ودرايته بالعناصر الفنية للعمل الأدبى ... العبرة عنده بالتأثير القوى الحى الذى يرسب فى الذهن ويعيش فى الوجدان) .

ولا أريد هنا أن أضرب الأمثال فكتابه (شعر اليوم) كسائر كتبه غنى بها من غنى صاحبه ثقافة واطلاعاً .

وناقد يحس هذه الدقائق كلها . يتلمسها أينما وجدت ويعتد بها ويباركها أو يبشر بها فنان أمين وناقد ثقة يطمئن أهل الأدب إلى حكمه لأنه حكم إنسان مرهف دقيق الحس .

والسحرتى كاتبا وناقدا رفيع القلم رفيع النفس لا يستطيع أن يذكر ذاكر أن فى تاريخه الأدبى اقتباسا أو تحويرا لا يخفى على ذوى الفطنة وأصحاب الدرس لم يعش السحرتى يوما على كتاب واحد ولم يفتت جهد إنسان ، مقالات وكتبا غفلا من التاريخ المحدد للتعمية أو التغطية أو التعمية أو التضليل .

كانت إمكاناته كثيرة ولكن آفته الكسل إن دراسات كثيرة كان يحفزه إليها المناسبة ... كان السحرتى بالأصالة والامتياز يستطيع أن يضيف الكثير إلى المكتبة العربية بعد (ازهار الذكرى) و... «أدب الطبيعة» و«الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث» و«ايديولوجية أدبية جديدة» و«شعر اليوم» وكتابه الشعر المعاصر من الكتب الرائدة فى نقد الشعر المعاصر نقدا واقعيا جماليا .

كان رفيع المكانة عند الخاصة من الأدباء والمتأدبين ولكنه كان منطويا ولو أنه سعى إلى الشهرة لدخلها من أوسع أبوابها لأنه يملك وسائلها من معرفة بلونيها غربية وعربية.. يملك الموهبة

والذوق الحساس ولكنه زاهد متواضع فى دنيا لا تتسع للخجول المتواضع..

لقد كان السحرتى أول من نقد الشعر نقداً علميا نفسيا مدروسا لاعلى نظريات ولكن عن معاناة فهو شاعر استهل حياته شاعرا.. ومن يدرى لعل له شعراً كثيراً مطويا.

كان السحرتى فى نقده مجدداً متجدداً.. لقد كان بعض النقاد فى وقته يدور حول عمود الشعر حين أصدر هو «الشعر المعاصر فى ضوء النقد الحديث».

وقد ألقى السحرتى عدة محاضرات عن النقد الأدبى فى معهد الدراسات العربية ضمها كتابه «النقد الأدبى من خلال تجاربى» صدر فى يونيو ١٩٦٢..

وكتاب السحرتى «أدب الطبيعة» هو أول كتاب كتب فى هذا الموضوع كما كان ديوانه «أزهار الذكرى» من الدواوين الرائدة فى شعر الطبيعة..

وكانت رابطة الأدب الحديث فى قيادته لها علامة مميزة فى النهضة الأدبية المعاصرة..

كان كاتبا.. وكان شاعرا.. وكان ناقدا.. وكان رجلا.. وكان نبيلا ليس هدفنا فحسب تاريخا له.. فما فى سطور يؤرخ لكاتب مثل السحرتى ولكنها أزهار الذكرى..

وهناك ناحية من نواحيه كان فيها من طلائع الرواد وأعنى بها نقد الشعر فقد نحا فى نقده منحى علميا نفسيا مدروسا لا يقوم على النظريات بقدر ما ينبع من تجاريبه هو.... أنه يصدر فى نقده عن معاناة فهو شاعر استهل حياته قصيداً ومن يدرى لعل له شعراً كثيراً طى الصفحات لم ينشط بعد لإخراجه.. كالعادة..

وتاريخ النقد سوف يعتد به ناقدا متجدداً متطورا متحررا متفتحا واسع الأفق والنظرة والصدر والثقافة من حيوية وسبق وتوثب ودليلى كتابه الفذ «الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث» الذى تحس فيه الاحاطة الشاملة، وتحس وراءه رصيدا كبيرا من المعرفة وتحس فيه قدرة على التمييز حساسة نافذة.... هذا الكتاب الذى صدر فى وقت كان النقاد فيه يدورون حول عمود الشعر يبدئون ويعيدون..

والسحرتى ، ناقدا ، يقرأ الشاعر ويسمعه معا بل يحاول أن يعيش معه تجربته فلا يفوته منه الصوت بل الهمهمة، ولا تفوته منه الحركة والخفقة، ولا تفوته منه البض والدفقة.. لا يفوته منه الحالة النفسية.. الطاقة الفنية.. جو الخلق.. قدرة البناء.. درجة الانفعال.. مدى الطلاقة التعبيرية.. الصفاء.. الإنسياب الشعورى.. الغنائية.. الرقرقة.. الرفيف.. الأمل.. الموسيقى.. وهج الخيال.. تلاحق الصور.. وألوانها.. طواعية القافية.. ايحاءات الألفاظ..

نضج التجربة.. معدن الأصالة.. جوهر الحقيقة.. مستوى التفوق من ابانة وتماسك وتكامل وجدة وقوة وصدق واشراق ونفاذ وتدرج وتطور وتناسب فى أجزاء القصيد موضوعا وشكلا.. وأخيراً النكهة الشعرية كما يسميها... ولا يهمه بعد هذا نوع أسلوب التعبير أو طريقته فقد أعطى للشاعر كل الحرية «فى استخدام الشعر المقفى أو الشعر الحر، لأن هذا متروك لمزاج الشاعر وطبيعته، وقدرته الفنية وطبيعة التجربة التى يريد أداءها حتى ليعده تعنتا مطلقا إلزامه بسلوك طريقة بعينها.. إنما العبرة عنده بموهبة الشاعر، ودرايته بالعناصر الفنية للعمل الأدبى.. العبرة عنده بالتأثير القوى الحى الذى يرسب فى الذهن ويعيش فى الوجدان ولا أريد هنا أن أضرب الأمثال فكتابه «شعر اليوم» كسائر كتبه غنى بها من غنى صاحبه ثقافة واطلاعا...

وناقد يحس هذه الدقائق كلها.. يتلمسها أينما وجدت ويعتد بها ويباركها أو يبشر بها، لهو فنان أمين وناقد ثقة يطمئن أهل الأدب إلى حكمه لأنه حكم إنسان مرهف يحس بالشعرة.. فهو حين يأخذ أو يلوم يجب أن يراجع المنقود نفسه أولا.. وإذا أثنى أغرى فلابد أن وراء المدح شيئا.. بل شيئاً كبيرا مما يقوم به الشعر..

والسحرتى كاتبا وناقدا رفيع القلم رفيع النفس لا يستطيع أن

يذكر ذاكر أن فى تاريخه الأدبى اقتباسا أو انتحالا أو سطوا أو تحويرا لا يخفى على ذوى الفطنة وأصحاب الدرس.. لم يعش السحرتى يوما على كتاب أحد ولم يفتت جهد إنسان مقالات وكتبا غفلا من التاريخ المحدد للتعمية أو التغطية أو التضليل.. ولكن السحرتى كان ولا يزال وسيظل رجلا ونبيلا.

وإذا كان السحرتى أستاذا وصديقا فإن من حقى أن أعتب عليه من هذا المكان وما كان العتاب ليستعلن لولا أنه عتبكم جميعا فإن السحرتى بإمكاناته كلها آفته الكسل كما أشرت قبلا.. دراساته أو كثير منها يعده فى اللحظة الأخيرة لا يحفزه إلا الموعد ولا يستحثه إلا المناسبة ومن عجب أن كل ما تناوله قلمه موسوم بالأصالة والامتياز ترى كيف يكون شأوها لو توفر لها واحتشد؟ سؤال طالما رددته كلما قرأت له.. أليس من حقنا أن نطالبه بما فى وسع طاقاته كلها وما أكثر طاقاته وما أكثر إمكاناته وما أغنى وسائله وأنبلها أيضاً..

إنى أؤكد لكم أن فى جعبته الكثير غير «أزهار الذكرى» و«أدب الطبيعة» و«الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث» و«ايديولوجية جديدة» و«شعر اليوم».. فى جعبته الكثير غير هذه الكنوز ونحن نطالبه أن يفرج عنها.. وأحسب أننا نكرمه أبلغ لو اتبعنا فى

تكريمه أسلوبا آخر فما بالمديح تتعلق نفسه فإنى أعرفه زاهدا فيه ولكننا نكرمه ونكرم الأدب الرفيع يوم نحفزه إلى إخراج مشروعاته الأدبية الكثيرة إلى دنيا الناس..

وبعد فإنى أرى الكل يرنو إلى هذا المكان ليشيد بالاستاذ السحرتى وهو بالإشادة حقيق، وبالتكريم خليق..

الاستاذ مصطفى لطفى المنفلوطى

ولد السيد مصطفى لطفى فى منفلوط فى صعيد مصر سنة ١٨٧٥ لأبوين مصريين وكان أبوه قاضيا شرعيا هو السيد محمد لطفى كما كان جده لأبيه السيد حسن لطفى قاضيا شرعيا أيضاً وهم من الأشراف وقد جاءت نسبة «المنفلوطى» من الأزهر الذى كان ينسب فيه الشخص إلى بلده..

ولم تختلف نشأته الأولى عن لداته فدخل كتاب منفلوط وحفظ القرآن الكريم.. ولما كان من تقاليد الصعيد أن يكون الابن الأكبر فى رفقة أبيه، فقد كان مصطفى يحضر مجالس أبيه الذى كان يجمع حوله شعراء منفلوط وأدباءها.

فشب على حب الأدب ناشئا وأشرب هواه فى طراءة العمر حتى إذا نهد إلى الأزهر وعمره تسع سنوات، انصرف عن الكتب النقلية إلى كتب الأدب ولم يستكمل المنفلوطى دراسته بالأزهر ولم يحصل على شهادات فهو لم يهرع إليه من أجلها ولكن فرارا من زوجة أبيه التى كانت تفضل أبناءها من زوجها الأخر عليه وهو حساس فانطوى على نفسه بادئ الأمر وآثر الوحدة التى لم يكن

يخرج منها، إلا إلى صحبة أخيه الشقيق فقد كان يرتاح إليه عندما عز عليه أن ينشأ فى حجر أمه التى كانت تعيش بعيدا عنهما..

ولكنه قرا العقد الفريد والأغانى وأمهات الكتب العربية ولاسيما مصنفات الجاحظ.. كما قرأ ما ترجمه أدباء سوريا ولبنان ونوه بجهودهم فى كتابه النظرات..

وهناك فى الأزهر التقى بالشيخ محمد عبده، فلازمه وتأثر به إيما تأثير..

وكانت مصر فى ذلك الوقت تضمر بغضا لأسرة محمد على فما أن رجع عباس من استامبول حتى قال فيه المنفلوطى القصيدة المشهورة التى تنسب أيضاً إلى السيد توفيق البكرى، ومطلعها:

قدوم ولكن لا أقول سعيد

وملك وأن طال المدى سيبيد

ومن الطريف تشطير الشيخ عثمان الموصلى لهذه القصيدة فقد قلبها مدحا، ليتمكن الناس من الاطلاع على الأصل:

«قدوم ولكن لا أقول سعيد

على فاجر هجو الملوك يريد

لأضرابه بيت من اللؤم عامر

«وملك وأن طال المدى سيبيد»

فحكم عليه بالسجن لمدة عام فلما خرج منه عاد به والده إلى منفلوط.. حيث مكث بضع سنين بعيدا عن القاهرة ولكنه لم يستطع البعد عن الحياة الأدبية فيها فقد كان من بلدته يراسل صحيفة المؤيد و«مصباح الشرق» ومقالاته فيهما فى ذلك الحين هى نواة كتابه النظرات فقد جمعها واختار منها هذا الكتاب الذى كان وسيلته فى طلب العفو عنه فقبل الخديوى وعينه محررا عربيا فى وزارة المعارف. ثم انتقل إلى الحقانية محررا عربيا عندما تولى سعد الحقانية فلما تأسست الجمعية التشريعية انتقل موظفا بالسكرتارية هناك.

وحين كان مصطفى لطفى بمنفلوط تزوج أو زوجته امرأة أبيه مع ابنها من أختين وإن كانت مرة أخرى آثرت ابنها بخيرهما. وقد انجب منها توأمين وثلاث بنات ثم توفيت فتزوج مرة ثانية سنة ١٩١١ من قاهرية انجب منها ابنه فاضل الذى مات فى حياته ثم ولدين وأربع بنات..

وظل المنفلوطى يكتب ولكنه بدا يتحفظ بعد أن عرف السجن فكان فى كتابته أقل تحرراً منه فى حياته الحقيقية العادية، فلم يخرجه من تحفظه إلا ثورة سنة ١٩١٩ فأخرج كتابه «فى سبيل التاج» وهو رواية فرنسية ترجمها وكتب لها مقدمة. وهو يصور كفاح الشعب ضد الظالمين وانتشار حركة الاستقلال..

كما وضع كتابا أسماه «القضية المصرية» لم يشأ أن يحمله أسمه ولكنه بأسلوبه وروحه نَمَّ عليه فنحى عن عمله بعد أن صادر ثروت باشا الكتاب إبان ظهوره.. ثم صدر أمر من السلطات الانجليزية بالقبض عليه لولا أن توسط أصحابه لوقف هذا الأمر....

وقد حدث سنة ١٩٢٩ أن حاول ورثته ضم كتاب «القضية المصرية» إلى كتاب النظرات فصادر صدقى باشا، وكان وزيرا للداخلية فى وزارة محمد محمود باشا، النظرات فأصدر الناشر طبعة أخرى مستقلة بالنظرات خلوا من «القضية المصرية» ثم طبع مرة ثالثة فى وزارة صدقى باشا فصادره مرة أخرى فكف أبناؤه عن طبعه..

ثم أعلن الدستور فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ فاستصدر نشأت باشا عفوا من الملك فؤاد عنه، وعينه محررا عربيا بالسراى ولكنه طلب نقله واستجاب له سعد زغلول فنقله إلى مجلس الشيوخ فى أواخر سنة ١٩٢٣ ولم يكد ينصرم عام حتى وافته منيته فى ١١ يوليه سنة ١٩٢٤ على أثر تسمم فى البول أجهز عليه فقد كان مصابا قبله بثلاث سنوات بشلل أقعده ثلاثة شهور..

وقد دفن فى ١٢ يوليه سنة ١٩٢٤ وصادف يوم دفنه ضرب سعد بالرصاص فى محطة القاهرة فلم يشيع بما هو له كفاء، وفى هذا يقول شوقى:

من مات فى فزع القيامة لم يجد

قدما تشيع أو حفاوة ساع

كان المنفلوطى فنانا وكان إنسانا .. كان يطرب للغناء ويألف صحبة أهله، كان يعشق الموسيقى والمسرح.. طلق اليد طليق الروح.. لقد كان من المقدر له أن يكون نقيب أشراف بعد وفاة والده ولكنه رفض وتركها لأخيه الشقيق السيد حسن. وكان يعرف لنفسه حقها وكرامتها حاول الشيخ على يوسف أن يزوجه ابنته فأبى ولم يكن عنده سبب للرفض سوى غناها.. كان حساسا وكان ينفعل بسائر الأحداث.

وكان عندما يتكلم يضغط على مخارج الحروف ليعوض ثقل لسانه وكان متحرراً حتى لقد علم بناته فى المدارس الأجنبية وأن كان رفض أن يعلم ابنه حسن اللغة الإنجليزية فأرسله مع أخته إلى مدرسة نوتردام دى لابورت فى حلمية الزيتون..

وقد بدأ هو نفسه يتعلم الفرنسية فى سنيه الأخيرة فلم يتسن له أن يحسنها ومع هذا كان يطلع على المترجم من الأدب الغربى

إلى العربية.. ومع هذا رفض أن يستبدل بزيه العربى الزى الأفرنجى تمسكا بشخصيته..

ومن تحرره أنه عندما كان محرراً عربياً بوزارة المعارف وطلب إليه أن يختار قراءات للمدارس، اختار مجموعة تضم الكثير من الشعر العاطفى وشعر الطبيعة مما يوافق ذوقه وإن لم توافق وزارة المعارف وقد سمى هذا الكتاب «مختارات المنفلوطى».

كان ثورة متحركة على هدوء فيه. نادى بالتكتل أمام العدو الأجنبى وهاجم الإنجليز وندد بأنصار الاستعمار الذين كان يدعوهم «الخونة».

حدث مرة أن كان سائرا برفقة صديق فى شارع كامل «الجمهورية حاضرا» وإذا بثروت باشا يمر بسيارته عبره فلما رآه نزل من السيارة فجأة وهدده إن لم يكف عن كتابة المقالات السياسية فى كوكب الشرق.. وكان يدبجها بإمضاء «كاتب كبير» فرد عليه متهانفا: «وهل أنا الذى يكتب هذه المقالات؟ إنها زوجتى..».

واستمر يكتبها.

وحدث سنة ١٩٢١ أن كان اسمه فى الكشف مع محجوب ثابت ولما صدر العفو عنه شطبوا اسمه وتركوا العنوان فلما صدر الأمر

بالقبض على محجوب ثابت ذهبت العربة «البوكس» إلى بيت المنفلوطى وكان على مقربة من بيت محجوب.. فلما استشعر وجودهم ارتدى ملابسه واستعد للنزول معهم وإذا بهم يستدركون ويذهبون إلى منزل محجوب المقصود بالهجوم..

وكان المنفلوطى من الرأى القائل بأن مصر للمصريين وقد كلفته شجاعة الرأى كثيراً.. عرف الجوع والحرمان وأن لم يثنه ذلك عن مبدئه فكان يعقد الاجتماعات فى بيته وينضم إليها خارجه..

وكان المنفلوطى يرى أن الاستقلال لابد أن يسبقه رفع مستوى البلد العلمى والاجتماعى..

وقد كان المنفلوطى فى الأدب مرحلة وحده فإذا كان البارودى قد أحيا البلاغة العربية القديمة وإذا كانت مدرسة الديوان بزعامة العقاد والمازنى وعبد الرحمن شكرى قد ثارت على الشعر التقليدى وشعر المديح خاصة..

وإذا كان شوقى قد وضع قواعد الأسلوب التجديدى فى الشعر، فإن المنفلوطى قد وضع قواعد الأسلوب التجديدى للنثر «اقرأ مقدمة النظرات». وإن كان قد أبعد العربية عن حياتنا اليومية بقدر ما أكسبها من رصانة وجزالة ولكنه يحسب

له تخلصه من السجع. إلا قليلا - وتخليصه اللغة من الضعف.

وللمنفلوطى:

* النظرات فى ثلاثة أجزاء.

* العبرات وهى مجموعة قصص ألف بعضها وترجم البعض الآخر.

* ماجدولين.. طبعت ٢٢ مرة

* الشاعر «أربعة فصول» وهى ترجمة رواية سيرانو دى برجراك الفرنسية التى ألفها الشاعر الفرنسى أدمون روستان، وهى دون الأصل بكثير..

* فى سبيل التاج.. طبعت ١٥ مرة..

* الفضيلة «وهى آخر كتبه». طبعت ١٨ مرة..

وقد سبق أن اشرنا إلى كتابه المصادر عن «القضية المصرية» والآخر «مختارات المنفلوطى»..

وقد عثرت على جزء من كتاب «ثلاث مقالات» لعله ضاع بين من كان يعهد إليهم بتبييض كتاباته فقد كان خطه لا يشائى أسلوبه ولا يتطاول إلى فنه..

وما عثر عليه من الكتاب يشير إلى حوار بينه وبين أبى العلاء يعارض فيه فلسفته وأسلوبه فى هذه المقالات غريب مختلف..

ولكن أشهر كتب المنفلوطى النظرات والعبرات.. والعبرات كما يقول فى تقديمها هى مجموعة روايات قصيرة بعضها موضوع، وبعضها مترجم ولم يقل لنا شيئا عن الأصل فى الترجمة وما هى أسبابه وراء اختياره لها.. مرة واحدة فى القصص الموضوعة اشار إلى الأصل الذى احتذاه وهو فى الترجمة أو الوضع أو التأليف تغلب عليه «الرومانتيكية» المفرطة. إنه فى إهداء الكتاب يقول..

«الاشقياء فى الدنيا كثير، وليس فى استطاعة بائس مثلى أن يمحو شيئا من بؤسهم وشقائهم، فلا أقل من أن اسكب بين أيديهم هذه العبرات، علهم يجدون فى بكائى عليهم تعزية وسلوى»..

لماذا لم يحاول التفكير فى المشكلة والدعوة بقلمه إلى حلها بديلا عن البكاء والعبرات ويقول فى النظرات « ص ٨٥»: «ليتك تبكى كلما وقع نظرك على محزون أو مفقود فتبتسم سرورا ببكائك.. الخ..

لماذا حفل الدموع هذا؟ خير من البكاء أن نتعرف أسباب الشكوى ونتلمس دواعى الحزن ونعالجها.. إن أمراض المجتمع الكبيرة والجذرية لا تعالج بالبكاء أو التألم ولكن بالدراسة والتشخيص والحل..

ورومانتيكية المنفلوطى لعلها من روح العصر الذى عاش فيه ففى ذلك الوقت أخذ الشرق العربى تلفه موجة الرومانتيكية أو تقليد الرومانتيكية الأوربية على أنها حركة جديدة مع أنها كانت فى أوربا آخذة فى الانحسار!!

ولم تقف الرومانتيكية عند المنفلوطى فقد هبت منها نسمات على أدب الاستاذ الزيات وأدباء المهجر ومن أعلامهم الاستاذ ميخائيل نعيمة وجبران حتى مصطفى صادق الرافعى كتب عن طبيعة العصر وطابعة كتبه: أوراق الورد، السحاب الأحمر، رسائل الأحزان..

وفى ذلك العصر ملأ رامى حياتنا أغانى عاطفية كلها حب وحرمان وشوق وعذاب ثم رضا راض بهذا كله..

ومجموعة الكتاب كاسمه مبللة بالدموع كابية كسيفة مع أن الحياة متعددة الألوان الأبيض الناصع والأخضر الفردوسى والأزرق الصافى والوردى البهيج..

يمر المنفلوطى كما يقول بروض البيان فيقف «أمام كل زهرة فيه وقفة المعجب بها، الحانى عليها.. وهكذا حتى خرج من ذلك الروض بنفس تطير سرورا به، وتسيل وجداً عليه»..

لماذا كل هذا الوجد السائل؟ لماذا كل هذه المبالغة؟ وفى الحزن!! حتى فى مدينة السعادة التى تراءت له فى المنام «النظرات ج١ص٦٨» «ألم بقلبه الهم»!!

ومن الغريب أنه ينعى على الأدب العربى إسرافه فى المبالغة والتهويل حتى عقد لذلك فصلا طويلا «النظرات ج١»..

والمنفلوطى مفاهيمه فى الاخلاق والوطنية «قريبة» غير ممتدة الأبعاد والرؤى.. على العكس من رؤيته البصرية فإنه يجعل نفسه يرى الدمع فى عيون سكان المنازل المجاورة بل يرى اسطر الكتابة والكلمات الممحوة!! فهو يدعو إلى الاحسان إلى الفقراء والبائسين.. والفقير خير له أن يوجد القادر، له عملا يتكسب منه ويوفر له كرامته فإن الاحسان لا يدوم وإذا دام لا يصفو مع طول المدة..

ولما كان المنفلوطى يعيش فى عصر الاتصال بأوربا فقد شاع فى أدبه الخوف من غلبة أوربا وسيطرتها بعلومها وأدابها ومدنيتها الجديدة حتى لقد كان هذا هما له وشاغله حدا به إلى أن يجعل منه دعوة حتى ليقول:

استطعت - وقد غمر الناس ماغمرهم من هذه المدنية أن أجلس ناحية منها.. وأن انظر إليها من مرقب عال، وكنت أعلم أن

من أعجز العجز أن ينظر الرجل إلى الأمر نظرة طائرة حمقاء، فإما أخذه كله أو تركه كله، فرأيت حسناتها وسيئاتها، وفضائلها ورذائلها، وعرفت ما يجب أن يأخذ منها الآخذ وما يترك التارك، فكان من همى أن أحمل الناس من أمرها على ما أحمل عليه نفسى، وأن أنقم من هؤلاء العجزة الضعفاء تهالكهم عليها، وسقوطهم بين يدى رذائلها ومخازيها، وإلحادها وزندقتها، وشحها وقسوتها، وشرهها وحرصها، وتبذلها وتهتكها، حتى أصبح الرجل الذى لا بأس بعلمه وفهمه إذا حزبه الأمر فى مناظرة بينه وبين من يأخذ برذيلة من الرذائل لا يجد بين يديه ما يدفع به عن نفسه انظر الثلث الأخير من صفحة ٦ من الترجمة..

ما يدفع به عن نفسه إلا أن يعتمد عليها فى الاحتجاج على فعل ما فعل، أو ترك ما ترك كأنما هى القانون الالهى الذى تثوب إليه العقول عند اختلاف الانظار واضطراب الافهام، أو القانون المنطقى الذى توزن به التصديقات والتصورات لمعرفة صوابها وخطئها وصحيحها وفاسدها»..

«النظرات ج١ ص٢٦ - ٢٧»

وقد عقد فى هذا الموضع فصلا مستقلا تحت عنوان «المدنية الغربية» ص١٣٢ أعلن فيه ببساطة شديدة أن الدعوة إلى الاصلاح

ينبغي أن تكون «باسم المدنية الشرقية لا المدنية الغربية»! ويقول فى حماسة الناس الطيبين: «إن دعوناهم إلى الحضارة فلنضرب لهم مثلا بحضارة بغداد وقرطبة وطيبة وفينيقيا، لا بباريس وروما وسويسرا ونيويورك، وإن دعوناهم إلى مكرمة، فلنتل عليهم آيات الكتب المنزلة، وأقوال انبياء الشرق وحكمائه، لا آداب روسو وباكون ونيوتن وسبنسر، وإن دعوناهم إلى حرب، ففى تاريخ خالد ابن الوليد وسعد بن أبى وقاص، وموسى بن نصير، وصلاح الدين، ما يغنينا عن تاريخ نابليون وولنجتون وواشنطون ونلسن وبلوخر أو بلتمارك، وفى وقائع القادسية وعمورية وإفريقية والحرب الصليبية، ما يغنينا عن وقائع واترلو وترافلغار - لعله يقصد الطرف الأغر واوستر ليتر..».

أقول: «ولماذا لا ندرس الحضارات والثقافات كلها واللغات أليس كل منها نافذة واسعة على عالم جديد بالنسبة إلينا.. عالم يستطيع أو نستطيع نحن أن نثرى عالمنا به فى الفكر أو الفن أو الأدب أو العلم؟

ومن الطريف أن «جب» فى كتابه «دراسات فى حضارة الإسلام» يعلق على حملة المنفلوطى بقوله: «وليس كالمنفلوطى من يتخذ مثلا باهرا على أثر التيارات الغربية فى العالم العربى، فهو

امرؤ كان بعيدا تمام البعد عن الاتصال المباشر بالغرب، ومع ذلك فإنه تأثر تأثرا بالغا بكل من روسو وفكتور هيجو.. ص٣٤٣.

والمنفلوطى فى كتاباته متوجس خائف متشائم يرتجف من «بكره».. حقا الغد بيد الله لماذا لا يكون الإنسان متفائلا مستبشرا حتى القمر بعد أن ناجاه ووصفه بأنه «عروس حسناء تشرف من نافذة قصرها، وهذه النجوم المبعثرة حواليك قلائد من جمان؟ أم ملك عظيم جالس فوق عرشه، وهذه النيرات حور وولدان؟ أم فص من ماس يتلألأ ، وهذا الأفق المحيط بك خاتم من الأنوار؟ أم مرآة صافية، وهذه الهالة الدائرة بك اطار، الخ.....» النظرات ج١ ص٥٧.

حتى القمر بعد هذا الوصف الشاعرى «الرومانتيكى» عاد يصفه بأنه «يقطع شوطه حزينا منكسرا»!!..

هل تحزن العروس الحسناء؟ ومتى تبلغ قمة فرحتها؟ هل يحزن الملك العظيم وحوله الحور والولدان؟

كأنى بالمنفلوطى من طول ماردد لفظة «الحزن» قد ألفه حتى ليفتقده إذا غاب عن سطوره ولو كان موضوعها مناجاة قمر..

يقول المنفلوطى فى العبرات:

«أنك ضحكت بالأمس كثيرا، فأبك اليوم بمقدار ما ضحكت بالأمس فالسرور نهار الحياة والحزن ليلها، ولا يلبث النهار الساطع أن يعقبه الليل القاتم!! ص٥٦

لماذا هذه النظرة الغيبية؟

وقد تخيل المنفلوطى مدينة سعيدة فإذا به يتصور «مدينة السعادة» «يعيش أهلها سعداء لا يشكون هما لأنهم قانعون، ولا يمسكون فى أنفسهم حقدا.. لأنهم متساوون، ولا يستشعرون خوفا لأنهم آمنون»..

قناعة .. مساوة.. أمن..

هذه هى متطلبات السعادة وقد أصاب إلى حد كبير فالقناعة تشيع فى النفس الرضا.. والمساواة تعنى تكافؤ الفرص، والعدل عند الحكم... والأمن ينتفى معه الخوف وتمحي الرهبة فتتنفس الحرية وتقول كلمتها صادقة وتجاهر برأيها واضحة وتعطى صوتها حرة متخففة فى كل هذا من الضغط النفسى والمادى والاجتماعى..

وقد شرح المنفلوطى فى الجزء الأول من النظرات طريقته فى الكتابة ورأيه فى الأدب مؤداها أنه قرأ كتب الأدب العربى القديم وأنه تأثر بها وعاشها حتى ليبكيه «أحر بكاء وأشجاه» شقاء

المهلهل فى الطلب بثأر أخيه - هذه قصة قديمة لو جاز لها أن تثير شعورا فلا يمكن أن يكون شعورا «حارا» من أى نوع سواء أكان حزنا أو سرورا - ما علينا، وشقاء امرئ القيس فى الطلب بثأر أبيه، وبكاء جليلة أخت جساس على زوجها وأخيها، وبكاء عدى بن زيد على نفسه فى سجن النعمان وبكاء.. الخ البكائيات على مسار التاريخ الأدبى، مما يستهوى المنفلوطى بمزاجه الحزين.....

والمنفلوطى يتحرى استعمال ألفاظ لغوية على سبيل التفاصح أو لعله تحية للفصحى مع أنه يقول «أنه يحدث الناس بقلمه كما يحدثهم بلسانه» أى بلغة بسيطة قريبة إلى الأفهام..

ويبدو أن الناس من حبهم إياه، أخذهم هذا الوصف فاقبلوا على العبرات والنظرات اقبالا شديدا وقد استهوتهم فيها سهولة الموضوع مما يسره للافهام على الرغم مما يعلق بالاسلوب أحيانا من مثل هذه الألفاظ:

«وفيعة» أى خرقة .

«مندلثا» أى مندفعها ..

صبارة البرد وحمارة القيظ.. الخ..

مع أن للمنفلوطي نفسه رأى يخالف هذا بل يناقضه فهو يأخذ على عباد اللفظ هوايتهم المفضلة أو المرهفة ويقول فى أسى ظاهر - والأسى هوايته هو المفضلة هذه المرة «إنه ما أفسد على المتنبى وأبى تمام كثيرا من شعرهما، ولا المعرى كثيرا من منظومه ومنثوره، ولاعلى الحريرى مقاماته، ولاعلى ابن دريد مقصورته، إلا اللغة وولوعهم بها، وشغفهم بتدوينها فى كل ما يكتبون فقد كانوا هم وأمثالهم من حبائس اللغة وانضائها فى كثير من مواقفهم يؤلفون ويدونون، من حيث يظنون أنهم ينظمون أو يكتبون، ولاتزال نفسى تشتمل على لوحة من الحزن لاتفارقها حتى الموت كلما ذكرت أن الأدب العربى كان يستطيع أن يكون خيرا مما كان لو أن الله تعالى كتب للزوميات المعرى النجاة من قبضة اللغة وأسر الالتزام وإنك لاتكاد ترى اليوم من شعراء هذا العصر وكتابه - الذين يأخذوون بزمام المجتمع العربى ويقيمون عالمه ويقعدونه بقوتهم القلمية فى شئونه السياسية والاجتماعية والأدبية كافة - من يعد من حفاظ اللغة العربية وثقاتها، أو من يسلم له مقال من مأخوذ نحوى أو مغمز لغوى، وهم على ذلك أدخل فى باب البيان والصق به وأمس رحما من أولئك الذين يستظهرون متون اللغة ويحفظون دقائقها ويحيطون بمترادفها ومتواردها ويتباصرون

بشاذها وغريبها ويحملون فى صورهم ما دق وما حل من مسائل نحوها وتصريفها، فإذا عرض لهم غرض من الأغراض فى أى شأن من شئون حياتهم وأرادوا أنفسهم على الافضاء به - ارتج عليهم فاغلقوا أو تقعروا وتشدقوا فكأنهم لم ينطلقوا» النظرات ج١ ص٣٠-٣١.

ومضى بعد هذا يفرق بين الأدباء واللغويين فى أسلوب من الطريف، أنه لايخلو من ألفاظ لغوية من ذلك الطراز الذى يثيره، ويثيرنا أيضاً..

وهو مغرم بالاستعارة والتشبيه يقسره أحيانا قسرا كقوله: «مضى الليل إلا أقله، ولم يبق من سواده فى صفحة هذا الوجود ألا بقايا اسطر يوشك أن يمتد إليها لسان الصباح فيأتى عليها» العبرات ص٨.

هل الأسطر تلحس باللسان؟

وكان أسلوبه - على الرغم من ولعه ببعض الألفاظ الصعبة - سلسا عاطفيا موسيقيا ولكن فى غير عمق أو أثر الدراسة ولهذا يعزو «جب» صادقا، شهرة المنفلوطى إلى أسلوبه أكثر منها إلى مضمون مقالاته..

ولعل من حب المنفلوطى للموسيقى وولعه بالمفعول المطلق لأنه يريح النفس فى آخر الجملة وإن كان أكثر منه كثرة حملت عليه النقاد «المازنى فى الديوان»..

وقد أشرت إلى اصطناعه الرؤية البعيدة مهما دقت ويميز الأصوات أيضاً على البعد البعيد فهو يستطيع - أو هكذا يقول - أن يرى طالبا فى المنزل المجاور له وقد «رفع رأسه فاذا عيناه مخضلتان من البكاء، وإذا صفحة دفتره التى كان مكبا عليها قد جرى دمعه فوقها فمحا من كلماتها ما محا!! ومشى ببعض مدادها إلى بعض!!

ورآه مرة أخرى «فى فراشه يئن انين الوالهة الثكلى» ترى كيف سمع الأنين وهو صوت مكتوم؟

... ...

لقد نقده كبار كتاب عصره كالمازنى والدكتور طه حسين ولكنه على الرغم من هذا تمتع فى حياته وبعد الحياة بشهرة ذائعة واسعة جاوزت حدود مصر إلى البلاد العربية..

وقد ظفرت كتب المنفلوطى بعدد قياسى من الطبعات حتى لقد طبع بعضها أكثر من عشرين طبعة. أما شعره فقد ضاع أكثره، ولم يبق منه ، إلا نثارات تشهد له..

★ ★ ★

وقد أثرت كتابات المنفلوطى فى جيله كله والجيل الذى بعده حتى لقد عقد «جب» أربعة فصول عن الأدب العربى «نشرة مدرسة اللغات الشرقية» ذهب الأدب العربى كله بثلاث مقالات حين استقل المنفلوطى بمقالة، وحده..

وقد كتب عن المنفلوطى غير «جب».

* دائرة المعارف الإسلامية.
* العقاد فى كتابه عن سعد زغلول.
* المازنى فى الديوان.
* الدكتور طه حسين: كتاب «نظرات فى النظرات».
* الاستاذ الزيات فى وحى الرسالة.
* شوقى ضيف فى الأدب الحديث.
* أحمد عبيد فى كتابه «مشاهير شعراء العصر».

المهندس حسن فتحى

اعتنق هندسة البيئة ولم يتزحرح عن رأيه حتى حين اشتدت حركة «التغريب» فى محاولة تغيير اجتماعى وسياسى مرسوم ومحسوب. وهى حركة انساق إليها كثيرون ولكن «حسن فتحى» أتخذ أسلوبا وتمسك به حين راعه تخلى البيت المصرى عن تقاليده التى كانت تربطه ببيئته وطبيعتها فى البناء والأثاث بل والعادات. لقد اتسمت العمارة فى مصر كما قلت (١) بامتزاج الطبيعة والدين فيها منذ مصر القديمة التى سمى العامود المعمارى فيها «العامود النباتى» من ولع المصرى ببيئته وطبيعة مصر. لقد كانت أرض المعبد كأنها جزء من الحقل والأعمدة فيه نخيل من حجر أو سيقان اللوتس.

ومن البيئة، المناخ وتأثيره.

ولهذا كانت العمارة فى مصر القديمة ومصر الإسلامية لها أقباء تتكسر عليها أشعة الشمس العمودية عندنا.

---

(١) كتاب (أزمة الشباب وهموم مصرية) للدكتورة نعمات أحمد فؤاد .

وكانت تبنى باللبن وهو مادة محلية فضلا عن أنه تكييف طبيعى يناسب جونا. وكان للبيت أو المبنى فتحات ضيقة فى أعالى الجدران لوهج النور وشدة الحرارة ثم تحقيق الذاتية والصون.

ولكى يمسح الفنان، الملل عن الجدران الواسعة، ملأها بالنقش والنمنمة فى مصر الفرعونية، وبالمعلقات فى مصر الإسلامية ولكن المدينة المصرية اليوم وخاصة القاهرة أعرق العواصم معماريا، غدت كرنفالا فى العمارة والزى ، وأنماط السلوك ولغة الحديث، بل ومناهج التعليم.

عمارات علب الكبريت: ذات السقوف المسطحة فى بلاد الشمس، ثم واجهات الألمنيوم والزجاج التى لا تصلح إلا للبلاد الباردة التى تتلهف على الشمس من ناحية وتحرص على استبقاء الحرارة داخلها من ناحية أخرى.

نستورد هذه الأنماط من كل بلد دون أن نفكر فى الفروق الشاسعة بيننا وبين بيئات أصحابها ودواعيهم، ونستورد منها بألوف الملايين كل ما تحتاجه هذه الأنماط والطرز من اسمنت وحديد ومكملات ومرفهات وتكييف! وكأن كل عمارة تدق فى بلدنا هى مضخة تضخ مالنا، وهو عرقنا إلى خارج البلاد.

ونظل سادرين... ويظل الاستنزاف والضياع! وكأن القاهرة برج بابل ... هذا البرج يؤرق المهندس حسن فتحى فحاول أن

يشدنا إلى أصالتنا وبيئتنا ونحن أصحاب أسلوب فى البناء... وفى محاولة العودة آثر أن يعتمد على:

* المادة المحلية

* العامل المصرى

أى الاستغناء عن الأنماط الغربية والموارد الغربية والتخلص من التبعية وتوفير الفارق الضخم فى التكاليف بل رفض الغفلة كما يحدث فى المساكن سابقة التجهيز التى استهوت البعض، وما هى إلا ضروريات حرب فى أوروبا فى الحرب العالمية الثانية وعندما استحدثت أوربا أساليب تكنولوجية متطورة، وردت إلينا هذه النماذج المختلفة، والمتخلفة، عندما استغنت عنها.

وهى فضلا عن نمطيتها وتقيدها بشكل جامد فإن التكلفة الفعلية لها، اتضح أنها أعلى من تكلفة النظم التقليدية فى البناء الذي يقوم فى الموقع مباشرة حين تصب حوائطها في المصنع ثم تنقل بعد أن تجف إلى الموقع ويضاف إلى التكلفة مصاريف النقل وعادم النقل.

لقد عول المهندس حسن فتحى على الخامات المحلية واليد المحلية مع الوفاء بكل المتطلبات المعيشية للإنسان وظيفيا ومناخيا ولكن بالوسائل الذاتية.

وهذا تحسب منه لوقوع النقص الشديد فى مصادر الطاقة التقليدية يزيد هذا، البحث الدائب عن بدائل كالطاقة الشمسية أو من التوافق البيئى مع خصائص الموقع ومواد البناء المحلية.

بهذا كله أصبح المهندس حسن فتحى أسلوبا وموقفا. ولكنه لاقى من العنت ما يلاقيه أصحاب الريادات حتى ليقول الدكتور عبد الباقى ابراهيم (بالرغم من أن حسن فتحى قد أصبح علامة مميزة فى تاريخ العمارة العربية المعاصرة إلا أن اسمه من النادر أن يذكر فى المناهج المعمارية بالجامعات والمعاهد العربية).

كان أول عمل قام به المهندس حسن فتحى هو تصميم مدرسة فى مدينة طلخا ثم بهرته العمارة النوبية بإنسانياتها وجمالياتها.

فى بداية حياته كلف بتصميم دار للمسنين بإحدى قرى محافظة المنيا وفرض عليه رئيسه التزام المنهج الكلاسيكى فى التصميم وأصدر له أمرا بذلك فاستقال سنة ١٩٣٠ ونهد إلى القاهرة حيث قابل ناظر مدرسة الفنون الجميلة فى ذلك الوقت وكان فرنسى الجنسية وبعد حوار تلاقيا فى طريقة التفكير. وانتظم فى سلك هيئة التدريس بكلية الفنون الجميلة العليا بالزمالك بالقاهرة سنة ١٩٤٦ التى مكث بها ستة عشر عاما ثم عاد إليها رئيسا لقسم العمارة بها من ١٩٥٣ - ١٩٥٧.

سنة ١٩٤٢ صمم المسكن الريفى لصديقه الفنان حامد سعيد المنزل ذى الأقبيـة والقبـاب وهو الأسلوب نفسـه الذى بنى به «المسكن» الريفى بقرية بهتيم للجمعية الزراعية الملكية.

سنة ١٩٤٦ كلف بتصميم قرية القرنة وكانت هذه القرية علامة عليها إذ اعتبرت (أهم انجازاته التى عرف بها فى أنحاء العالم).

ولهذه القرية قصة تضمنها. كتاب (عمارة الفقراء) الذى صدر بالانجليزية سنة ١٩٧٣ من مطبعة جامعة شيكاغو... كتاب (قصة قريتين) بالعربيـة صدر عن هيئة الاستعلامات، بالعربيـة سنة ١٩٦٩.

تقلد عدة مناصب حكومية كان يضيق بها بعد قليل.

من سنة ١٩٦٢ خلد إلى مكتبـه بداره بدرب اللبنانة بالقلعة حيث أصبحت هذه الدار مزارا ومنارا للمصريين والأجانب الوافدين من سائر أنحاء العالم ، على السواء.

شارك فى عديد من المؤتمرات الدولية والعربية وألقى العديد من المحاضرات فى المنظمات المعمارية والجامعات العربية والأجنبية وأصبح علما من أعلام العمارة البيئية فى العالم.

يجيد اللغتين الانجليزية والفرنسية إلى الحد الذى يؤلف بهما ومن هذا كتابه ، (عمارة الفقراء) فى الانجليزية.

وبمناسبة التأليف فى اللغات الأخرى يرد على من سألوه السبب، إنه الخوف من الكساد إذا كتبه بالعربية فالرجل عرف الإحباط ، طويلا.

ومن الطريف أن إتقانه اللغتين الانجليزية والفرنسية، دربة، ولقانة. والتقاطا..

(أنا لم أتعلم لغات... الانجليزية كانت تدرس فى المدارس .. والفرنسية كانت هى لغة العائلات... وكان والدى قاضيا يتكلم ويكتب بالفرنسية... فكان الجميع من حولى يتكلمون الفرنسية وهكذا تظهر خلفيته الثقافية والاجتماعية...

قد يكسب المال هواة الجديد والغريب ولكن يكسب، البقاء الأطول أصحاب الذاتية والتعلق بالمحلية... إن المحلية قديمها، جديد، يستهوى أيضا.. وقد يصل الاستهواء حد البهر والتتبيع... تتبيع الأخرين لها حتى فى غير وطنها. لقد نقد «حسن فتحى»، كثيرون وأيده كثيرون وخدمه النقد كالتأييد، فقد ظل بعدهما وبهما. علامة وموضوعا دائما للحوار يهدأ ليتجدد وحسب المرء فى فنه ووطنه أن يكون رمزا ومعلما .

يقول كتاب (المعماريون العرب).

نشأ حسن فتحى منذ تخرجه سنة ١٩٢٦ فى محيط معمارى (اعتنق الكلاسيكية فى الأسلوب، سواء كان ذلك فى المناهج

الدراسية أو فى الممارسة المهنية، فقد ارتبطت المدرسة المعمارية فى مصر فى ذلك الوقت بالنظم الغربية سواء الانجليزية أو الفرنسية وعاصر حسن فتحى العديد من كبار المعماريين المصريين مثل المرحوم على لبيب جبر، والمرحوم محمود رياض من المدرسة الانجليزية والمرحومين مصطفى باشا فهمى وحسن شافعى، ومصطفى شافعى، وأبو بكر خيرت من المدرسة الفرنسية، والدكتور سيد كريم بعد ذلك من المدرسة السويسرية، وغيرهم من كبار المعماريين الذين تركوا بصماتهم على العمارة المصرية المعاصرة بشكل أو بأخر لكنه اختلف عنهم جميعا حيث اختط لنفسه منهجا خاصا به. ارتبط بعمارة البيئة خاصة العمارة الريفية، وهو بذلك لم يترك بصماته على العمارة الحضرية كغيره من كبار المعماريين، ومع ذلك كان انتشاره عالميا، أكثر اتساعا، وأكثر معرفة من غيره).

حسن فتحى شخصية مميزة.. وثرية واتقانه لغتين أجنبيتين جعله يجمع فى إهابة ثقافات متعددة... وحين تتعدد ثقافات الفنان تمده بمدد لا ينضب من التعبير بألوانه.. أى تعبير اللفظة والاشارة، واللغة، والصورة، والقصة والوقفة والموقف... وقد كان حسن فتحى هذا كله مجتمعا ومتفرقا.

يسخر من ناطحات السحاب فيقول:

أمركت أمريكا كل شئ فى مصر حتى زحفت على التراث والتقاليد الفنية. ومن عجيب يقول الفنان عن أعماله الفنية إنها بنات أفكاره كيف؟ هو أسمر مسمسم وهى شقراء أو زرقاء العينين. يرمز إلى استيرادها من الغرب أو استيحائها منه.

إن الطين مادة البناء فى بلدنا ذات الشمس الساطعة. إن الله خلق الإنسان من طين وأمر الملائكة أن تسجد له (فسجدوا إلا إبليس) كان يريد عمارة من مسلح ليمتثل!!

سمعته فى المجتمع العلمى يحاضر فى هندسة البيئة فعرض بالفانوس السحرى ناطحة سحاب فقال مثل هذا البناء لا يعمله إلا صاحب بترول أو صاحب زباله.. لقد سألت نفسى طويلا فاهتديت إلى الجواب.. هنا روميو لا يستطيع أن يصعد إلى جولييت..

لم يضحك وهو يقولها... فسرعان ما غشيت وجهه بسمة ألم.. وهو يردف قائلا (فى المبانى الإسلامية، المئذنة ترتفع فوق البيوت فيشعر أهلها حين الأذان الله أكبر، أن المئذنة تصلهم بالسماء.. ولكن الآن العمارات الحديثة ترتفع كثيرا على المآذن.

الآن تجاور الصالونات والحمامات ، السماء.

★★★

قد يقول قائل بزيادة السكان وارتفاع سعر الأرض ولكن مصر يجب أن تكون أخر بلد يتردد فيه مثل هذا القول ليس السبب اعتبارات البيئة والتراث فقط، وقد أوضح هذا المهندس حسن فتحى فى مراحل حياته كلها. ولكن لأن ٢٩/٣٠ من مساحتها صحراء. لماذا لم تتعدد فى الصحراء، (مصر الجديدة) كما فعل البارون امبان؟

ويسخر من الخراسانة مفضلا الطين (إن الله خلق الإنسان من طين وليس من خرسانة مسلحة) ويتندر على مسجد جروبيوس فى مشروع جامعة بغداد والمكون من قبة قائمة على الأرض، بقوله (الإنسان يضع العمامة على رأسه ولا يضعها على الأرض).

جده ممزوج بسخرية من اللاهين، ومع هذا ، ولهذا (تبعث شخصيته على الاهتمام كما تبعث على الاحترام) كما يقول الدكتور عبد الباقى إبراهيم .

لحديثه طلاوة تشد إليه الأسماع.. ولا يتخلف فى هذا الأجانب عن المصريين لأن حديثه مزيج من العربية والانجليزية والفرنسية وكأنه يعدل فى القسمة، أرستقراطى النزعة والشارة.. يلتف به الشباب وتتحلق حوله الندوة ولكنهم يخرجون من عنده سعيدين باللقاء وماضين فى الوقت نفسه فى ممارسة عملهم بأسلوب

العصر أو المصلحة أو الكسب. فهم يطربون بسماعه يتحدث عن عمارة الفقراء ثم يصممون عمارة الأغنياء... فالغنى مقياس العصر فى المال والعمارة على السواء.

(وهكذا لم يترك حسن فتحى جيلا مؤمنا بهذا الفكر الإنسانى وانقلب الفكر الذى بدأه من عمارة الفقراء إلى عمارة للأغنياء.. الأمر الذى أثار جدلا بين الأوساط المعمارية فى العالم العربى وخارجه).

فى حياته خطوط متشابكة وخيوط متوازية ومن هذه الأخيرة وراثاته عن الريف الذى ارتبط به معماريا مع أنه كما يقول فى مقدمة كتابه (عمارة الفقراء) كان يراه من نافذة القطار بين القاهرة والاسكندرية فقط فقد كان الريف بالنسبة إلى والده بيئة يملوها الذباب والناموس والمياه الملوثة مع أنه كان يمتلك عددا من المزارع لا يزورها إلا مرة فى السنة).

فى حين أن والدته كانت تعشق الريف ويسرى عشقه إليه فبدأ يحنو على الفلاح ويطب لحياته البائسة من خلال الشئ الذى يملكه أو يجيده أى العمارة. وأبرز ما فى عمارته الريفية (القبة) والفلاح لا يعرفها ولا يألفها بل هى تقترن فى وجدانه بالمقابر. وهنا وجد النقد ثغرة ينفذ منها إلى حسن فتحى.

فإذا انتقلنا من العمارة - عمارة الريف - إلى الموسيقى وجدنا حسن يهوى الموسيقى الكلاسيكية بينما يعتبر أخوه محمد فتحى رائدا من رواد الموسيقى العربية، ويحتدم النقاش بين الأخوين، والتعارض فى نفسه ذاتها فهو يرسخ القيم الحضارية فى العمارة ويدعو إلى المصرية فى العمارة ويدعو إلى الكلاسيكية الغربية فى الموسيقى فيجد المخرج لنفسه فى الوصل بين موسيقى «برامز» والهارمونى بين الخطوط المكونة للعمارة الإسلامية (أو بمعنى آخر فى العلاقة بين الطول والعرض والارتفاع) بينما يرى فى الموسيقى العربية لونا من الترديد والتطريب وفاته أن دكة المرددين فى المساجد الإسلامية وتوالى الاعمدة لون من التطريب الهندسى.

ومن طرائف حسن فتحى بناؤه مسرحا فى قرية القرنة مما لم تشهده القرية المصرية من قبل وأقيمت على المسرح العروض الريفية تحت أضواء الشعلات النارية وحضر العرض أمراء وأميرات ذلك الوقت مما أضفى على القرية الجديدة جوا من الرومانسية. ومع أنه العرض الأول والأخير إلا أن أفواج السياح وأعضاء السلك الدبلوماسى توافدوا على القرية التى طار لها صيت كما زارها نخبة من المعماريين الأجانب ونشر عنها فى كل

أنحاء العالم (حتى أصبحت علامة مميزة، أضافت بعدا إعلاميا إلى حسن فتحى المعمارى والفنان والإنسان).

وحسن فتحى الفنان سريع الانفعال شديد الايمان بأفكاره يدافع عنها وكأنه يحمى صغاره ويصير وجهه فى حمرة العباءة الصوف الحمراء التى يلبسها فيبدو فيها كأحد السلاطين خاصة فى عين الأجانب.

لايتردد فى الجهر بنقد الروتين والأنظمة الإدارية. وقد ضمن هذا، كتابه (عمارة الفقراء) فصل (المعمارى والفلاح والبيروقراطية) . وضيقه بهذا كان مبعث شقائه لأنه وقف حجر عثرة فى سبيل انتشار فكرته. ومع هذا ظل يكتب للمسئولين بما فيهم رئيس الجمهورية منذ سنة ١٩٦٠ إلى سنة ١٩٨٢ وهو فى الثانية والثمانين من عمره حين كتب (مذكرة) بعث بها إلى وزارة الخارجية وممثل الأمم المتحدة فى القاهرة يشرح فيها وجهة نظره أى أسلوبه المعمارى الذى يتوافق مع مشروع استراحة الأمريكيين بقرية نواى بالمنيا.

وهذا الإصرار يعد من أبعاد شخصية المهندس حسن فتحى.

ومن طرائف حسن فتحى أنه كان يصحب معه المعلم علاء الدين مصطفى فى مشروعاته الخارجية فاصطحبه فى سفره إلى

أمريكا لبناء بعض مبانى المركز الإسلامى فى «ابيكو» فى أمريكا..
ولكن أين امتدادات المعلم أو المعلم بضم الميم الأولى وكسرها فى الثانية وهذه عقبة أخرى فالتواصل ، تمكين وتقنين.

كان فكر حسن فتحى مرتبطا بشخصه وشخصيته حتى ليقول الدكتور عبد الباقى إبراهيم (كانت شخصيته هى محور الاهتمام بقدر ما كانت عمارته محور الإلهام).

دعا المهندس حسن فتحى إلى إنشاء معهد للدراسات الريفية فى مصر وإلى إنشاء مشروعات ثقافية فى العمارة والفنون الشعبية.

يقول د. عبد الباقى إبراهيم

(تختلف الرؤية بالنسبة لحسن فتحى عند المعمارى العربى عنه عند المعمارى الغربى. وإذا كان حسن فتحى قد نال اهتماما كبيرا من المعماريين فى الغرب الأمر الذى ظهر فى نشر أعماله فى المجلات المعمارية الفرنسية والانجليزية والايطالية واليونانية والأسبانية وغيرها، أو ما نشر عنه من كتب ألفها هو أو كتب عنه باللغة الأجنبية فهو لم ينل مثل هذا الاهتمام من بنى عشيرته وأهله فى مصر أو العالم العربى إلا مؤخرا وعلى نطاق ضيق جدا حتى كاد ينسى وتنساه الأجيال الشابة من المعماريين العرب).

وكنت أود أن يحلل الأستاذ المهندس عبد الباقى، الظاهرة. وإن كان ألمح إليها بين السطور فى الفصول الأخرى.

فالعمارة المودرن الآتية من الغرب الذى يعمل على تغريبنا ، أكثر كسبا وجذبا ودعاية... ومنها سبب من أسباب أن الرجل ليس من هيئة التدريس فى الجامعة وإن كان قضى من عمره تسعة عشر عاما فى كلية الفنون الجميلة بالزمالك منها ستة عشر عاما رئيسا لقسم العمارة بها كما أسلفت (من ١٩٣٠ - ١٩٤٦ - ١٩٥٣ - ١٩٥٧) وهى فتره متقطعة من ناحية.. فترة أعقبتها الثورة على كل شئ وانسحب التغيير على الناس والأفكار والمقاييس.

ومنها أن شخصيته تحب الهيمنة، وفكرته تدخل عنده على الأقل، فى باب الطقوس والنصف الثانى من القرن العشرين وهو النصف الثانى من عمره أيضا، تمرد فيه كل شئ على كل شئ فناشئة الفن كناشئة الأدب يتعجلون الظهور والثراء ولو على حساب اكتمال النضج وتجاهل التقاليد الفنية.

هذا على حين كان على الناحية الأخرى من العالم كانت تصطرع فى الغرب أفكار جديدة فى العمارة وفى الحضارة ذاتها - الحضارة الغربية الصناعية التطبيقية (التكنولوجيا) واشتد

الصراع فى الفترة التى امتدت من الخمسينات إلى الستينات... فترة يقول عنها «سير جيمس رتشاردز» الذى كان محررا للمجلة المعمارية Arhitcetural Revicw فى كتابه عن حسن فتحى (فترة ارتبطت فيها القيم الإنسانية بالكشف عن آفاق جديدة فى الفكر والتكنولوجيا، وبعد ذلك ، اكتشف أهل المدن بالمغرب أنهم كانوا ضحية قوى مختلفة لم تستطع أن تحدثهم بلغتهم أو تتجانس مع بيئتهم الحضارية أو العمرانية، وذلك بعد فترة الثلاثينات التى لم يكن البعض فيها مستعدا للفصل بين دور البناء كخدمة اجتماعية، واستعمال الوسائل التقليدية لإحياء الطرز التقليدية. من هنا اتضح الالتقاء بين فكر حسن فتحى الذى بدأ يظهر على الساحة الدولية فى الستينات والرأى العام المعمارى، الذى ملأ الحركة المعمارية الحديثة السائدة فى الغرب بالرغم من أن الأعمال التى عرف بها حسن فتحى دوليا ونشرت له فى عام ١٩٦٩ كانت قد أنشئت فى الأربعينات (أى فترة انتظامه فى سلك هيئة التدريس بكلية الفنون الجميلة بالزمالك.. من هنا كان تقدير الغرب لفكره المتقدم).

كان الغرب مستقرا سياسيا فكان عنده فسحة من الوقت لصراع آخر فنى ومن هنا فطن إلى حسن فتحى قبلنا.

على أن (سير رتشاردز) يردف قائلا فى تحديد هو من خصائص الدقة العلمية:

(إنه من الخطأ إعطاء حسن فتحى مكانا مركزيا فى تطور العمارة المعاصرة ، فمفرداته المعمارية ظلت محدودة، كما أن طرق البناء التى أعاد اكتشافها، قد طبقت فى عدد محدود من المشروعات فى الإسكان الريفى وبعض المساكن الخاصة، التى تعتبر هى كل حصيلته فى البناء، ومع ذلك فإن ارتباط حسن فتحى بالعمارة الريفية فتح أمام الغرب رؤية جديدة لإمكانية تطبيق أساليبه فى مشروعات ريفية أخرى فى افريقيا وآسيا أو أمريكا الجنوبية حيث توجد جذور متشابهة فى العمارة الريفية ليست واضحة فى العمارة الحضرية. لقد كان حسن فتحى فيلسوفا ومعلما فى الوقت نفسه ويمكن اعتبار أعماله القليلة موردا خصبا لفكر متجدد يحاول أن يتعامل مع مواد البناء المتوفرة فى البيئة بما يتناسب مع الإمكانات المتاحة وحاجات السكان مع توفير أنسب الظروف المتاحة لمعيشتهم وذلك بدلا من استيراد تكنولوجيا الغرب التى لا تتناسب مع الواقع المحلى).

أما وجهة النظر المصرية فيعرضها مهندسون منهم :

د. اسماعيل سراج الدين (إن شخصية حسن فتحى شخصية متعارضة فبينما تأثيره واسع التقدير لكن غير مفهوم بالرغم من طول مدة وجوده فى الصورة لمدة ستين عاما فقد كان طوال هذه المدة على هامش المعمارى والتعليمى فى مصر كذلك عند اتخاذ القرار فيما يتعلق بالشئون الحضرية لكنه وبإصراره كان يتحدى معظم المسئولين عن نشاط التعمير فقد كانت قوته فى مبادئه أكثر ما هى فى مبانيه فباستثناء القرنة التى تعتبر من أهم أعماله فإن قليلا جدا من أعماله ، معروفة للعامة).

ويقول الدكتور يحيى الزينى

(يمثل حسن فتحى جيلا من الرواد فى بلدنا، جيلا يعتبر موسوعة ثقافية. وفى اللحظة التى خرج فيها هذا الجيل كان التعليم المعمارى والعمارة فى أيدى الأجانب بصفة أساسية من ايطاليا وانجلترا لذلك نجد أن معظم المنشآت التى بنيت فى القاهرة فى هذه الفترة لها طابع كلاسيكى مأخوذ من الطراز الرومانى وطراز عصر النهضة وقد كان ذلك قبل الحرب العظمى الأولى، بدأت بعدها تظهر فى أوربا تيارات العمارة الحديثة، والاتجاهات الوظيفية، والعمارة العضوية.... وقد نقلت هذه الأفكار بدون محاولة ربطها بالبيئة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية

المحلية فى مصر) وهنا هب حسن فتحى يدعو إلى التمسك بالتراث المعمارى لونا من التماسك فى وجه الزحف الغربى فى العمارة (وهو فى هذا المجال لا يدعى أنه ابتدع فكرا جديدا، وإنما يقول إنه يقيم التراث ويجعله متصلا بالحاضر).

حين كنت فى أمريكا سمعت تعليلا لتعلق نيويورك بناطحات السحاب أن المجتمع الأمريكى فى نيويورك مجتمع تجارى يسيطر عليه الحساب اليهودى فقطعة الأرض تتضاعف رأسيا بديلا عن الأفقية... ويبدو أن ارتفاع سعر الأرض فى أى مكان يقترن، حتما، بتعدد الطوابق فى البناء خاصة إذا أضيف إلى هذا الاعتبار عامل الكثافة السكانية لهذا يقول الدكتور يحيى الزينى (وإن كانت عمارة الطين لا يمكن أن تدخل المدينة ولا ان تحل مشاكل المجتمعات الحضرية ذات الكثافات السكانية العالية حيث الأرض غالية الثمن. فهذا لا يعنى فشل عمارة الطين فهى قادرة على حل مشاكل أعداد كبيرة من المواطنين، وفى أماكن كثيرة خصوصا فى مشروعات استصلاح الأراضى والمجتمعات الجديدة، حيث لا يوجد أى مجال لبناء العمارات العالية).

والحقيقة أن المسألة عند حسن فتحى ليست بالضبط عمارة الطين ولكن عمارة البيئة فقد بنى كما يقول د.طاهر الصادق

بالحجر والطفلة ولو كان وجد الخشب متوافرا لبنى بالخشب، ولو كان وجد الحديد لبنى بالحديد، ولكنه بجميع هذه المواد كان سيظل نابعا من الأرض التى زرع فيها الخشب أو التى صنع منها الحجر.

على أن د. طاهر الصادق يعزو عدم انتشار فكر حسن فتحى إلى سبب آخر هو التغريب الواقع علينا والمسلط على الأصالة والتراث.

جاء حسن فتحى فى وقت كانت مصر فيه تريد أن تؤكد هويتها، تلملم ذاتها... ومصر دوما هى مصر الزراعة لهذا كان بيت الفلاح هو محور التفكير وارادة التطوير عند حسن فتحى. إنه بيت الملايين ليس فى عصره فحسب ولكن منذ ألوف السنين.

ووسط الطرز المختلفة المحلية والواردة كان حسن فتحى يمثل خطا محددا ومميزا فأكسبه هذا كما يقول د. طاهر الصادق ذاتية بل أكسبه (بعدا عالميا لصدقه، ولو كان مثل الآخرين بطبيعة الحال لما كانت له أهميته).

ومع هذا لم يفهم حسن فتحى كما يجب أو فهم فهما سطحيا حتى الذين تأسوا به أو تأثروه كانت فكرتهم عن نظريته خاطئة كما يقول د. طاهر الصادق (فالناس اعتقدوا أن المهندس حسن

فتحى يبنى على الطراز العربى وعلى الطراز الإسلامى ما دام هناك قبة ومثلث وبعض التفاصيل مثل مجموعات الشبابيك المثلثة).

عامل آخر أساء إلى المهندس حسن فتحى هو التجارب المكررة فعمل فى قرية (باريس) فى الوادى الجديد مثل القرنة، وهما مختلفان . كذلك النتائج السلبية حيث لم يلق استجابة من الدولة فاعتقد البعض أن هذا آخر المطاف المعمارى كما يقول الدكتور محمود يسرى (لا يستطيع أن يوضح نفسه وفكره فقط، ولكن أعماله هى التى توضح فكره وفلسفته).

ويشير د. صلاح زكى إلى نقطة مهمة فى نظرية المهندس حسن فتحى وهى أن البيت الذى يبنيه الإنسان لنفسه، عادة، يحافظ عليه لأنه جزء من نفسه أما البيت الذى حشر فيه فغالبا لا ينتمى إليه عاطفيا كمكان يفصله عنه جدار غير منظور لا يقل عن الجدران التى تفصل حجرة عن أخرى والدليل المساكن الشعبية والعبث بها.

خير ما يقال فى حسن فتحى ما جاء فى حيثيات منحه الميدالية الذهبية لعام ١٩٨٥ من الاتحاد الدولى للمعماريين والذى يمثل ٩٨ دولة تضم أكثر من ٩٠٠,٠٠٠ تسعمائة ألف معمارى.

قررت لجنة تحكيم جائزة الاتحاد الدولى التى اجتمعت فى باريس فى الفترة بين ٢٩ - ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٨٤ منح الميدالية الذهبية للمعمارى المصرى حسن فتحى.

(وذلك لبناء بيئة عمرانية أفضل .. كما كان قادرا على إعطاء الجذور الثقافية للعمل المعمارى قيمها المناسبة. إن مساهمات حسن فتحى عديدة ولكن أهم ما فيها هو الإخلاص الذى استثمره فى عمله فى كل جوانب الممارسة المعمارية..

حسن فتحى فى سطور

ولد فى ٢٣ مارس سنة ١٩٠٠ بالاسكندرية فى أسرة ميسورة الحال وانتقل الى القاهرة فى الثامنة من عمره .

تخرج فى المهندس خانة.. جامعة الملك فؤاد الأول عام ١٩٢٦ .

- صمم ونفذ مسكن الفنان حامد سعيد بالمرج ١٩٤٢ - ١٩٤٥ .

- صمم ونفذ قرية القرنة الجديدة لحساب مصلحة الآثار بين عامى ١٩٤٦ - ١٩٥٣ .

- خبير بمنظمة الأمم المتحدة لاعانة اللاجئين عام ١٩٥٠ .

- صمم ونفذ قرية لولؤة الصحراء لحافظ عفيفى باشا عام ١٩٥٠ صمم ونفذ مدرسة فارس بالصعيد عام ١٩٥٧ .

- صمم ونفذ مركز التدريب بالواحات الخارجية بهيئة استصلاح الأراضى ١٩٦٢ .

- صمم ونفذ مركزا ثقافيا للفنون الشعبية لوزارة الثقافة والإرشاد القومى ١٩٦٥ .

- خبير للتنمية الريفية لمشروع الأمم المتحدة للتنمية بالمملكة العربية السعودية ١٩٦٦ .

- صمم ونفذ قرية باريس بالواحات الخارجية لهيئة تعمير الصحراء عام ١٩٦٧ .

- صمم ونفذ مسكن الأمير صدر الدين أغا خان على الضفة الغربية للنيل بأسوان ١٩٨٠ .

- صمم قرية دار السلام بـ أبيوكويثيو مكسيكو بالولايات المتحدة صمم ونفذ قصر الشيخ ناصر بالكويت بالطوب الرملى الأصفر عام ١٩٨٤ .

- مؤسس ورئيس المعهد الدولى للتكنولوجيا المتوفقة منذ عام ١٩٧٧ .

- قام بجولات كثيرة فى ربوع وادى النيل، وجمع خلال هذه الجولات مجموعات عديدة من رسوم وصور فوتوغرافية ـ لتفاصيل مختلف المبانى وأنواعها وطرق زخرفتها.

- نقل صناعات أهل البدو الدقيقة فى منسوجاتهم الجميلة الخاصة بهم من الصحراء الغربية والواحات .

- أهم ما أثبته فى دراسته المنازل والمساكن العربية القديمة استعمال الملاقف العليا المائلة التى تتلقى تيارا الهواء وتدفعه داخل حجرات المنزل فى الاتجاه المناسب حتى تنتهى الى فناء الدار الداخلية .

- تعرف على جميع أهل الحرف فى منطقة القاهرة القديمة،، والذين يزاولون صناعات الخشب المعشق وشبابيك الجص المحلاة بالزجاج الملون، والنافورات الرخامية المصنوعة من القطع الصغيرة الملونة .

- قام بدراسة مشروع المعهد العالى للفنون الشعبية وهو عمل فريد فى نوعه ويعتبر خلاصة للبحث ونضوج الفكر والحس لدى الفنان .

- سافر الى افريقيا ليشترك فى دراسة مشكلة الإسكان الريفى بالقارة. .

- مشروع قرية القرنة النموذجية .

- وفى الخارج تخطيطات وتصميمات لقرى العراق وأحياء سكنية بمدينة بغداد وكورانجى بمدينة كراتشى بالباكستان .

وزار العــراق وســوريا والأردن وفلسطين وطرابلس ولبنان والسعودية والكويت وكافة بلاد غرب افريقيا وانجلترا وفرنسا وايطاليا وسويسرا واليونان وبلجيكا ويوغسلافيا والنمسا .

عضو المجلس القومي للثقافة والفنون والاعلام .

الجوائز والأوسمة

- نال جائزة الدولة التشجيعية فى العمارة عن مشروع قرية القرنة النموذجية سنة ١٩٥٨.

- حصل على جائزة الدولة التقديرية فى الفنون سنة ١٩٦٧ .

- منح وسام الفنون من الدرجة الأولى عام ١٩٦٨ .

- له ابحاث عديدة باللغات الانجليزية والفرنسية والالمانية نشرت فى المجلات الاجنبية .

ومن الكتب :

١ ـ قصة القريتين لتجربة قرية القرنة.

٢ ـ بحوث وزارة البحث العلمى بأرض التجارب بالدقى.

٣ ـ عمارة الفقراء .

١ ـ الفنان حامد سعيد

ما رأيته مرة قط الا دار أمام عينى، شريط عجيب.. مصرى من صميم الشعب.. من سوق السلاح أحد اثنين يعتبرهما أعز شوارع القاهرة : شارع سوق السلاح وشارع المعز .

سافر إلى انجلترا وتعلم فيها .. وزد على هذا أنه تزوج انجليزية .. وأنجب بنتا تعيش بعيدا عنه فى انجلترا مع أمها ..

شريط عجيب .

ثقافة عربية واسلامية الى حد التصوف .

وهو ينظر الى المرأة المصرية نظرة ملؤها الاحترام والاعزاز ثم .. هو يحب مصر حب العاشقين .

وهو أيضا نبع حنان الى درجة أن من يزوره فى بيته الريفى، ينبهه أن يسلم على الزهرة والنبتة .

انسان فيه أبوة حتى للأشياء، يطيق أن تعيش ابنته الحقيقية بعيدا وراء البحار لا يراها ولا تراه .

هذه الأمور كلها التى تبدو من المتناقضات أو على الأقل تثقل على الاحساس الشاعر ـ وهو مرهف الاحساس ـ فلا شك أن فى

داخله صـراعـا ، بين الـواقـع والعـقل .. وبيـن القلب والـعـقل.. وبـين المبادئ و«النصيب» .

مصرى شديد التعلق بمصر، يعطى اسمه، انجليزية ...

مسلم متصوف يتزوج فى المرة الثانية، فنانة مسيحية .

هذه القوى المتصارعة تعيش أو تتعايش داخل كيان نحيل كأنه الطيف.. أو لعله برته الأحداث فلم تبق منه الا الأصغرين : القلب واللسان .

أفكاره عميقة حتى لكأنه فكر ناطق .. أو أعماق متحركة ..

أعـود من سـرحـتـى الى الواقـع .. بل الى الأرقـام .. الأوراق الرسمية تقول :

- ولد فى ١٩٠٨/٨/٤ .

المدارس والمعاهد التى تخرج فيها :

- تخرج فى المعلمين العليا عام ١٩٣١ .
- سافر فى بعثة الى انجلترا من عام ١٩٣٦ الى عام ١٩٣٩ .

الوظائف التى شغلها :

- عين مدرسا للتربية الفنية بعد تخرجه عام ١٩٣١ .
- شغل وظيفة مدير عام التفرغ للفنانين والأدباء بوزارة الثقافة عام ١٩٦٢ .

أوجه نشاطه :

- ولد فى بيت حافل بروائع الفن الإسلامى مما كان له أثره فى حبه للفن منذ نشأته .

- إن رسومه لم تأخذ الصورة المألوفة من صور فى أطر قابلة للعرض المعتاد - ولكنها أخذت صور الجداريات الكبيرة .. تمثل رؤى متطلعة الى أفق التكامل والتوافق بين ما يسمى التجريد التشبيه.

- أما عطاؤه الفكرى فيتمثل فى قراءة جديدة للتاريخ المصرى ولمعنى التاريخ الثقافى للإنسان الذى تمثل فيه مصر الذروة المتميزة .

- بدأ دعوته لإعادة بناء الانسان المصرى.. وصدر عنه فى ذلك العديد من المقالات والكتب التى تكون فى مجموعها وحدة متماسكة ، وتمثل اضافة للفكر المحلى والعالمى .

- له أحاديث استمرت زهاء الأربعين عاما وشملت جوانب شتى من الفنون الاسلامية، وعن عالم المرأة، وبناء الانسان ، أساسيات الشخصية المصرية - والتى جرى على تقديم الواحد منها فى عام كامل يتناوله بالشرح فى اجتماعات أسبوعية كان يقام بعضها فى مركز الفن والحياة .

الجوائز والأوسمة :

- جائزة الدولة التقديرية فى الفنون عام ١٩٨١ .

- وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى عام ١٩٨١ .

اهم نتاجه الفني :

- جـدارية «اوزريس» ١,٥ × ١٠ مـتـر من وحى عطاء مـصـر الفرعونية .

٢ - جـدارية «انطونيـوس» ١١ × ١٠ مـتــر - ومن وحى عطاء مصر المسيحية .

- ثلاث جداريات منها سنداء السماء» ٢,٥ × ٣,٥ متر - من وحى مصر المسيحية .

٤ - ست جداريات منها العدالة والثورة البيضاء» ٣×٧ متر - من وحى العصر الحديث .

٥ - العديد من الدراسات والتأملات فى رحاب الطبيعة.

أهم انتاجه الفكرى : هذه أبحاث وكل منها صفحات مركزة :

١ - المعنى الثقافى للثورة .

٢ - الفن فى مصر عبر العصور .

٣ - وظيفة الفن .

٤ - فن التصوير المصرى .

٥ ـ المفهوم المصرى للفن .

٦ ـ روح الفن المصرى .

٧ ـ الدعوة لقضيتنا بالصورة فى الداخل والخارج .

٨ ـ حرية الفن .

٩ ـ رسالة الفن فى مصر المعاصرة .

١٠ ـ الفن وإعادة بناء الشخصية المصرية .

١١ ـ الفكرة المصرية فى الفن .

أقول يذكر مقرونا بمركز الفن والحياة.

والحقيقة أنه كان (المركز) تتحلق حوله الندوة صباح الخميس من كل أسبوع .

يقوم من تلاميذه مقام سقراط من تلاميذه أو مقام العقاد من مريديه

له أسلوب .. أسلوب روح وأسلوب تعبير .. أسلوب فيه «مجاهدات» ، و«مقامات».. فيه نفحة صوفية. أكثر من مرة اقترحت عليه أن يجمع هذا كله فى كتاب ولكنه كان يكتفى بطبع «فصلات» صغيرة.

يبدو أنه كان يجد سعادته فى أنه رأس مدرسة.. مدرسة شعارها ، وصل الفن بالحياة.

«دعوة إلى اعادة الوحدة بين الفن والحياة» .
رسالته لها خطوط عريضة تندرج تحتها تفاصيل كثيرة .

إننا لا نعرف أنفسنا .

من الغريب أننا نعيش فى القاهرة أغنى عاصمة معمارية ، غير شاعرين .

ونعيش فى البلاد المصرية التى ما زالت تحتوى أرضها من الآثار الفنية القائمة عند المصريين القدماء على أجمل وأروع الانتاج البشرى فى دائرة الفنون التشكيلية غير شاعرين .. حتى المثقفين لا يحفلون حتى بقمم التراث المصرى الإسلامى أو المصرى القديم .

التقليد .

التيار السارى من العصور القديمة الى الوسيطة نفتقده فى عصرنا (فإن منتجاتنا حتى الآن فى معظمها تعتمد على الأسلوب الخارجى المستورد) مع اننا أصحاب الحضارات الأم التى اتصل أمرها من قبل التاريخ الى اليوم .

الفنان حامد سعيد يرى، القضية الاساسية فى دائرة الفنون التشكيلية هى أننا على الرغم مما عندنا من مواهب ، وما لنا من تاريخ مازلنا نتحرك فى اطار التبعية. ولا تكف النيات ولا الشعارات .

لكى نتحرر من هذه التبعية لابد من الفكر والفعل فى وقت معا.. مازالت الفجوة بين الفن والحياة شاغرة ولم يحدث أن كانت هناك فجوة بين الفن والحياة فى مصر.

سلطوية الفن :

يقول فى أنَّه اسى ورنة حزن دفين :

لم تكن فى مصر الفوعونية ادارات للفنون

ولم تكن فى مصر الاسلامية ادارات للفنون

ولم تكن فى مصر الفرعونية وزارات للثقافة.

ولم تكن فى مصر الإسلامية وزارات للثقافة .

ولكن كان فى مصر الفرعونية، وكان فى مصر الاسلامية، فنانون منقطعون للانتاج الفنى وللتجويد الفنى، يستهدى روح ثقافة البلاد .

لا تخلق المدارس الفنية، الفنون.

ولا تخلق الوزارات الفنية الفنون .

ولا تخلق الوزارات الفنون

إنما الذى يخلق الفنون، هم الفنانون.

والفنان القادر على ذلك العطاء ليس الفنان المأجور، ليس الفنان المأمور، ولكن الفنان الحر الواسع الادراك، القادر على

البحث والتفوق على نفسه والتطلع الى أفاق أعلى وأرفع مما يحققه .

لم يوجد مشكل التقدير الفنى أو التسويق الفنى كان فيض الفن دفاقا.. عاما .. متخللا .. وشاملا .

حتمية الفن :

عنده أن جوهر الفلسفة الفنية النابعة من هذه الأرض، «قدسية الفن» .

لم يكن الفن قط على هامش الحياة .

لم يكن الفن قط معزولا عن الحياة

لم يكن الفن قط مجرد اضافة إلى الحياة

بل كان الفن صميم الحياة.

وهذا التعبير غير التعبير (من صميم الحياة) لأن (من) تفيد البعضية أو الجزئية ولكنه جعل الفن : الكل .

عنده، العمل الفنى (ليس ترفا بل هو حق من حقوق الانسان) العمل الفنى تعليم وتكريم للحياة.

(وهكذا كان العمل .. كل عمل فى هذا البلد.. من قبل أن يبدأ التاريخ، وعندما بدأ، وعبر العصور ، فى اللحظات الموفقة التى اهتز بالسعادة فيها قلب الانسان على هذه الأرض، وفى رحاب هذا النهر) .

يبقى بعد هذا «تعـريف» العمل الفنى الذى ينطبق عليـه هذا الوصف.إنه عنده ، هو (العـمل الذى ينجح فى أن يحـمل قلب العامل بين ثناياها، والقادر على أن يهب ذلك القلب لكل قلب يتفتح للحياة.. هذا العمل الفنى من أى عصر سحيق يلغى الزمن يوحد الرؤية فى لحظة، استـبـصـار رائعـة هى هبـة من هبـات النفس البشرية.

أقول : إنه عمل توضـأ صـاحبه قبل أن يشكله أو يصوره ، او يقطره، أو يسطره، أى الفن الحقيقى طهر وصلاة.

مـثل هذا الفنان فى عـين الرجل، انســان بار وهذا الوصف يستقيه أو يستهديه من الآية الكريمة :

(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البـر من آمن بـالله واليـوم الآخـر والملائكة والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) .

هذا المفهوم للبر ثروة للنفس .

ويقول ابن عربى فى تفسيره :

«ويمكن أن يؤول المال بالعلم الذى هو مال القلب. لأنه به يقوى ويستغنى.

ومن هنا كان الانسان الحر الذى لا يملكه شيء، مثلا أعلى عزيز المنال.. انسان يهدف الى البر الى خلوص من الذات الصغيرة.

الى التكامل مع الكتلة البشرية الأم .

الإعتزاز بالجذور .

فى محاولة التقاء بحصاد العصور الطويلة كحق من حقوق الانسان المصرى، وجذر من جذوره وسند من أسانيده لابد أن يتعرف عليه ويرتضيه ويرتاض به، ويحافظ عليه بتنميته والاضافة اليه فى هذا الطور الجديد من اطوار أمة قديمة تالدة ورائدة لعديد من المجتمعات البشرية فى شتى بقاع الأرض.

درس الطبيعة أو مدرسة الطبيعة :

إن الطبيعة ومشاهدها وما توحى به وما تعطيه بالنسبة لنا ، أم كبرى ومربية اولى ومحبوبة أثيرة نسعد بهديها ونتعرف بفضلها وننتشى بوصلها ولاحد لما ندين به، لها .

والطبيعة ليست الماء ولا الهواء أو السماء .

ليست الشجر ولا الحجر

ليست النبت ولا الحيوان .

ولكنها ، أكبر وأعم وأشمل هى الروح الكبرى تتجلى فى كل هؤلاء : فىَّ وفيك وفينا جميعا فى الماضى والحاضر والمستقبل .

هذه هى الطبيعة وحدة واحدة كبرى وأشكال متعددة تترى.. ينبوع .. وكنز .. وما انشغالنا بأثار هذه الروح الكبرى الا انشغال بها وتحنان إليها وتودد وتقرب.. امل اتمام الوحدة معها ، والقرار قرب سرها .

أى أن الطبيعة لنا طريق ورفيق ومنطلق.. ولهذا نجده فى كتابه (الفن وإعادة بناء الشخصية المصرية) يقف طويلا عند الطفل وهو الأمل فى هذه الدعوة .

وهنا يرى أن نبدأ بتثقيفه من حديقة الحيوان باعتبارها المكان الأخاذ الجميل الغنى بالمقياس العالمى بمجموعة النباتات. هى دنيا كاملة: نبات وحيوان وطيور وأسماك ومياه وكان الحيوان محببا فى مصر من قديم الزمان وقام بدور مهم فى الثقافة المصرية. انه نحت حى متحرك.

- المتاحف
- السينما
- مسرح العرائس

- جمعية الحشرات .. يقول : إننا لا نحب رؤية الحشرات وهى من أروع ما يكون ، أقرب الى عالم المجوهرات التى نقتنيها ونحبها .

- المتحف الجيولوجى لنرى الحياة فى صورها الأولى .

- الصور الفوتوغرافية بشرط أن تكون متقنة مبهرة جميلة وصغيرة حتى يمكن للأطفال اقتناؤها .

والصورة الرائعة قادرة على التثقيف بدون كلام

- مملكة النبات :

إنها المملكة الأم إذ بدونها لا يمكن للحيوان أن يحيا .

- عالم الأفلام الرائع الكبير والبحر والمحيط بكل شىء

- تراث الانسان ممثلا فى حضاراته العظمى .

فنونه

دياناته

عظماء الانسانية فيه

هنا تكون ثقافة الطفل متينة البنيان .

إيمان النفس ايمانا شاملا

عنده أن مصر كانت دائما فى عصورها الزاهية التى جعلت منها علامة على الحضارة البشرية، مثلا رائعا لايمان النفس :

إيمانها بالوجود فيها ومن حولها

إيمانها بسعيها وكدها وانجازاتها

إيمانا صادقا عاليا فوق الأحداث .

ان هذا الايمان دعامة للحرية ولكرامة الانسان .

يقول المصرى حامد سعيد : (إن إعجاز الفن المصرى القديم - ونستخدم كلمة - الاعجاز بلا مبالغة - يكمن السر فيه على ذلك الوفاق العميق بين النفس المصرية وأنحائها الداخلية وأبعاد الكون المحيط .

اذا أحكمنا الرباط بيننا وبين ذلك الينبوع المحيط، لأمكن التقاط الخيط، والالتحام بخبرة الأجيال السابقة بما يعتبر خير زاد لمواجهة حياتنا الراهنة بإضافة مدعمة.

إنها رؤيته للحل. فى زاوية من زواياه .

انه يؤمن أن مصر كانت فى بداية تاريخها تجمع فى عطائها بين ثلاثة عناصر :

الفن .. والايمان .. والزراعة

وأن العلاقة بين الفن والايمان والزراعة فى هذا المكان من الأهمية بدرجة قصوى .

إن فهم الفن فى مصر بغير فهم ايمان مصر فهم ناقص .

وكذلك فهم فن مصر بغير فهم الزراعة فهم ناقص .

الاتقان :

إن تجسيد الاحساس فى شكل .. فى تشكيل ينبض ولو كان أداة عملية والمثل عندنا مركب الشمس ..

أو تجسيد «ارتفاعات» من المعنى وذوى القيمة.. والمثل عندنا «ابو الهول» .

إنه يفهم الاتقان على انه المساواة بين الحس واللمس .. بين جسة الصانع ونبض القلب.. بين الشكل والمعنى .. بين الصانع والمصنوع ..

هذا الاتقان سر الثقافة.

بث القيمة فى المصنوع ومثالها المركب

تجسيد معنويات الانسان ومثالها ابو الهول

فن الرؤية :

قلت يوما: إننا حين نعدد الفنون نقول :

فن الأدب .. فن الرسم .. فن النحت .. فن الموسيقى وننسى فن الرؤية وهو مفتاحها جميعا .

يقول الفنان حامد سعيد : (الرؤية أصعب من المطالعة لأنها فن غير ممارس وربما كان غير معروف أنه موجود .

الرؤية - أى الخبرة الذاتية والتجربة المباشرة - اذا نمت بالتدريج وبلا كلل مبرأة من الرتابة آخذة حقها من الجد والعناء - تتيح للذات السالكة طريقها العسير ، وحدة الأصل والمنبع والسياق والنسق والسنة والطريق، تتيح لها آخر المطاف رؤية الحق أينما توجه البصر .

هذا الحق كان يسمى فى مصر القديمة «ماعت» كانت الماعت، الأساس للحضارة المصرية بما رسخت من قيم الحساب والضمير والتجويد.. والاتقان.. وكانت الحارس للحضارة بهذه القيم أيضا.. ويوم تغيب هذه القيم تميل كفة الميزان ويبدأ النقصان .

فى كلمات .. فن الرؤية هو فن البصيرة.. فمن الناس من لهم عيون ولكن لا ينظرون بها ..

الايمان بأولوية الصورة

فالصورة عنده مادة مشكلة تحمل ضمير انسان ..

البناء مصور .. والنساج مصور .. والنجار مصور وكل صانع مصور .. إذا حمل عمله ضمير انسان ويخلص من هذا الى أن لغة التشكيل تأتى فى المحل الأول من حضارة مصر .

هذا صحيح من حيث الشكل ولكنى اختلف معه فى تفاصيل هذه النظرة فمن العلامات المضيئة المصرية «اخناتون» صاحب

الكلمة الرائعة فى توحيدها وتوحدها .. وقد نقلت عنه «المزامير» ومن العلامات المضيئة المصرية الحكيم «امينموبى» الذى تأثره «سفر الأمثال» .

ومن العلامات المضيئة، المصرى البسيط: الفلاح الفصيح

وقد أخذت مصر فى المسيحية دورا رائدا من خلال كتابات الأب اثناسيوس وبوخوميوس .

وأخذت مصر فى الإسلام والعربية دورا رائعا من خلال الكلمة .

وفى العصر الحديث تصدرت مصر حركة البعث فى المنطقة من خلال الأدب والأزهر والجامعة وتبع هذا فنونها الحديثة وأعلامها فيها .

ويلخص الفنان حامد سعيد ، أدواء العصر فى :

- الرتابة .
- العجلة
- السطحية
- الغرور

فهو يرى النبت يخرج من الأرض يطلب النور ويطلب السماد وكذلك يخرج الانسان من الطبيعة الى ما فوق الطبيعة يطلب الحق ..

والدفعة التى نراها العين تشد النبات الى النور.. الى العلو، تناظر الشوق الملح يدفع القلب نحو الفوق .. نحو التسامى .. نحو الحرية.. نحو ما لا يدركه ادراك .

والفنون الكبيرة ، والأعمال الكبيرة والحيوانات الكبيرة، والحضارات الكبيرة .

كلها تشدنا الى ذلك الفوق .

والطبيعة فينا ومن حولنا تدفعنا

اليه وتدلنا عليه .

ولكن وزر الرتابة الذى نجنيه على نفوسنا يرسب الصدأ على العين والقلب فتظلم الحياة ويغيب المعنى .

وعجلة الحياة شيطان العصر وأس رتابته وشتى أمراض النفس البشرية المعاصرة .

والسطحية صنو العجلة وربيبتها، أم الضياع وإهدار القيمة البشرية .

أما الغرور فقد أورثه انسان العصر ، اعتداده بذكاء الذهن وحده دون ذكاء الإحساس والمشاعر. فانسان عصرنا المتقدم الذى وطأ القمر كما يقول الفنان حامد سعيد، هذا الانسان الذى تعلم قدرة التفكير الموضوعى والجماعى لساسة المادة لم يتعلم بعد

أشد ماهو فى حاجة إلى أن يتعلمه: معنى الحرية والطريق إليها على الرغم من أنها الغاية والمطلب .

يستوى فى هذا الأقوياء والضعفاء من الدول والشعوب .

وهكذا تظل الحرية مطمحا بعيدا .. قد لا يتفق اثنان كما يقول الرجل على معنى لشعار الحرية يمتد إلى بعد بعيد ولا ينقص ذلك من قيمة الحرية، بل يزيد .،.

إنها الأمل الذى لم يتبلور بعد .

إنها المستقبل الذى دفعنا اليه أعماق الحياة ولم نصل اليه بعد

إنها الحنين الى الوجود البشرى الحق والذى لم يتحقق بعد

إنها معنى الحياة لهذا الجيل وللأجيال القادمة ولأمد بعيد .

لهذا استحقت الحرية أن تكون القبلة التى تتجه إليه قلوب البشر وما تزخر به حياتهم من علوم وفنون وفلسفات ونظم وسائر أنشطة الحياة.

وفى هذا الحشد الحاشد يرى الفنان حامد سعيد، المرأة، الشق الأنثوى من أعماق النفس البشرية وأن قدرة المرأة هى عمق البصيرة.. وسحر الإلهام .. واستثارة المثال عند الآخرين ..

وعليها اليوم أن تتعلم كيف تستخدم هذا السر لصالحها .. لإعادة بناء ذاتها ورفعة كيانها الجديد .

إنها الأم .. والأخت .. والحبيبة .. ورفيقة الحياة.. والابنة.. والملهمة .. هى ربة البيت وانس ذلك البيت وسره وسحره .

والبيت بذرة الحضارة

والعالم كبيت غاية الحضارة

بيت بسيط وعميق

هذا البيت الصادق .

حصن قومي

إنها لم تتحطم معنويا للآن كما تحطم بعض الشبان بالتبعية الساحقة من جراء الانبهار المخيف بمزينات الحياة الخارجية فى العالم المعاصر .

لن تكون نهضة بدون مشاركة المرأة

(إن الآلاف العديدة من المصريات الناهضات هن سند الأمل)

إن البيت جامعة صغيرة تعلمنا فيها من أمهاتنا معانى الحياة التى لم نجد لها ضريبا فى كتب الحكماء بعد . تعلمناها من ساعة لساعة وبدون وعى تشربناها عن طريق المثال كأحسن ما يكون التعليم .

فى كلمات : المرأة البصيرة، هى صانعة الفجر الجديد .

ومن الطريف تعريف الفنان حامد سعيد للحضارة.. الحضارة المصرية على الأقل . يقول :

لن نحاول أن نعرف ، الحضارة ، بالحدود الذهنية، ولكن نعرفها بالمذاق المباشر .

إن فحوى الفن المصرى القديم فى الممتاز من أعماله سواء فى ذلك ما بث فيه القيمة من أدوات الحياة أو جسد فيه من مجردات .. هو بالضبط ، تشكيليا ، فى أعمال عديدة لا يحدها حصر أو عصر أو وظيفة .

وهنا يرى أن من حق البشرية على العلوم النفسية أن تفحص وتمحص الوثائق كلها التى من شأنها ألا يزيف أو يتجوف مفهوم الحضارة.

ومن التزييف:

الاستسلام للشائع والمشهور

والشخصية النزوية

والحرية والعربدة

وهنا نحتاج الى مقاييس للفسولة والنضج غير المقاييس الاحصائية التى تعتبر أن الاكثر انتشارا هو «النورمال» وأن هذا «النورمال» فيه الكفاية .

مصر والفلسفة

ليست لمصر فلسفة أكاديمية ولكن لها فلسفة كونية .. النظر الى الكون الشامل.. الكل فى واحد ولهذا نشعر أننا أمام فنونها وكأننا أمام حكمة لا يُسبر لها غور .

وهى كذلك بالفعل وإن يكن من غير الممكن صياغة تلك الحكمة فى نظم فلسفية على النسق الإغريقى.. كانت اسلوب حياة .. قوامة وجدان كونى متصل بالحياة اتصالا تلقائيا مباشرا تتعهده مختلف أوجه نشاط الانسان بمزيد من التنمية والنضج .

ضريبة العصر :

إنها عنده (الانشغال بدراسة الوسائل دون الغايات وهذا هو ضريبة النهضة العلمية المعاصرة، لأن العلم - رغم قيمته الكبرى - هو دراسة الوسائل) .

التصحيح الجذرى للثقافة

لتسهم الثقافة كما يتمنى ونتمنى معه ، مع بقية الطاقات فى دعم اللحظة الرائعة والخطرة التى نعيشها اليوم .

تصحيح مفهوم الحياة :

أى كيف الحياة.. الذى غاب عندما اهتزت القيم واختلت المقاييس .. كيف أن الحياة قيمة من قيم تراثنا عبر العصور..

فعندما ارتفعت النفس المصرية على البدائية والبربرية تسنمت ذروة تستطيع أن نسيمها «الرهافة الحضارية» .. أى كيف الحياة.

وهنا ينحو باللائمة على علم النفس (ان صورة الانسان عن الانسانية ومقاييس الانسان لقيم الانسانية الشائعة اليوم جزء لا يتجزأ من مشكل اليوم .

وهذا المشكل يأخذ بخناقنا ليوردنا موارد الحيرة والقلق والخوف ويسلكنا فى اغلال التبعية ويدفعنا الى أن نقبع فى القالب الذى يعده علم النفس للنفس .

وهنا تشتد الحاجة الى :

الوعى بالمقدس : هذا الوعى الذى يسميه الفنان حامد سعيد (حركة الأحياء للرؤية الدينية المباشرة والتى هى بتجربتها موائمة لمنهج العصر وان كان العصر بعد لم يعمد الى اعداد عدتها) فغابت عن حياتنا قيمة كبرى كانت تفيض فيها حضارتنا عبر العصور حين كانت عامرة بالايمان.. هذه القيمة الغائبة هى :

تلك السكينة الرائعة.. والسلام الايجابى.. والطمأنينة المستقرة.

من هنا كان مركز الفن والحياة وقفة وموقفا: وكان مكانه من الطـرف القبلى لجزيرة الروضـة والكيـفيـة التى ينفتـح بها على النيل .

والهواء والسماء وذكرى العصور .

مركز الفن والحياة بهذا كله دعوة ورجاء، من هنا اقترن اسم الفنان حامد سعيد بمركز الفن والحياة.. واقترن مركز الفن والحياة به .

كلاهما تعبير عن الآخر وتفسير له .

أما الفنـان حامد سعيد فقد تحدثت عنه فى هذه السـطور .

وأما مركز الفن والحياة فإنه (التجسيد) لهذا كله مرة أخرى، الفنان حامد سعيد :

فى محراب الدين آمن بالتوحد فكان متصوفا وفى ساحة مصر آمن بالتوحد فكان «عارفا» .

وفى التاريخ أمن بالتوحد فاتصل الزمان .

وفى مركز الفن والحياة أمن بالتوحد فآخى المكان واتحد العنوان .

مركز الفن والحياة أى حامد سعيد

المصادر من كتابات الفنان حامد سعيد :

- محاضرة (الفن وثيقة نفسية)
- فصلة عن (الشخصية المصرية)

فصلة عن (الدعوة لقضيتنا بالصورة فى الداخل والخارج)

- فصلة عن (رسالة فى مصر المعاصرة) .
- فصلة عن (حرية الفن) .
- الفن وإعادة بناء الشخصية المصرية .

٢ - الفنان الأستاذ حامد سعيد

صاحب طريقة وصاحب أسلوب وصاحب رؤية . يقول المتصوفة: (الحب علم بالحبيب).

وقد عاش مصر وأحبها بمجامع قلبه فأرسل ترانيمه كإخناتون العظيم .. وأرسل سبحاته صلوات شكر لخالقها أن يحفظ علينا نعمتها وأرسل كلماته بين تلاميذه تردد على مسامعهم:

الفن وإعادة بناء الشخصية المصرية.

أساسيات الشخصية المصرية.

بناء الانسان والبيت.

بل بناء الانسان والطفل.

بناء الانسان والتعليم.

نحو الاتقان فى بناء الانسان.

خطوط عريضة عميقة يبث معانيها على امتداد قرن كامل حتى وصل على أعتاب القرن الواحد والعشرين. وقد جمع أزاهيره من حدائقه كلها فى كتابه الجديد الذى يحمل هذا العنوان (مصر والقرن الواحد والعشرون).

كتاب مقطر ..الكلمة فيه .. كل كلمة محسوبة بحساب دقيق .
كان الذى يتكلم فيه معلماً وأستاذ أجيال وصاحب طريقة واسلوب..

كل كلمة تتضمن فن الحياة .. فن الأسلوب .. فن الرؤية .. فن البصيرة.

إنه موضوعه الأثير .. فقه معنى الشخصية المصرية . إنه رسالة (تصنيع رؤية معنى مصر والشخصية المصرية) . وقف عند أهمية الجذور . يؤلمه أننا انخلعنا من جذورنا الحضارية.

نحن نتلعثم حضارياً ونحن أصحاب أعمق تجربة حضارية كان لها ريادة فى العصور القديمة والعصور الوسيطة ولم يتوقف فيها الاجتهاد الحضارى بل إن الوسيط أخذ إيجابيات القديم ونماها جوهرياً وسما بها .

أسلوب تفكير قبل أن يكون أسلوب تعبير.

مفتاح للدراسة .

وأهمية الدراسة المتعمقة للعصر والافاقة من إغماءة الانبهار بالحضارة المعاصرة التى فقدت مبررات القيادة والريادة وهى على الرغم من هذا، تحمل الكثير من أسباب الوعى المدرك بفضل العلم.

وقف وقفة مضيئة عند كلمة البيت .

البيت أصل الحضارة .

والبيت غاية الحضارة.

وفى البيت السعيد

يتكامل كل من الرجل والمرأة فى حد ذاته ويتكاملان فى وحدة واحدة هى معنى البيت.

خلقهما الله من نفس واحدة وبث منهما شعوباً وقبائل لتعارفوا .

البيت .

بناء من تراب وماء .. بناء من طين لم تمسسه نار .. إذا اندثر عاد إلى الأرض الأم.

يشترك معها فى بناء الحياة.

هذا البناء البسيط تمتد جذوره إلى بدء استقرار الانسان على الأرض..

قام على اكتشاف الزراعة أم العمارة والحضارة وحدته قالب الطوب الأخضر.

ارتفع قائماً وتعانق حباً وكون كوخاً هو صورة مصغرة من الكون.

جهات أربع ترتفع فوقها السماء أم حانية وحامية تحيط بالإنسان وتضمه فى رحابها ليستقر ويسكن ليسعى متعاطفاً مع الكون الأم الكبرى.

لقد انجز العلم أكثر مما أنجز فى أى عصر آخر ولكنه تناسى وحدة الحياة لأنه تجنب الإيمان بالله مع أنه يكشف كل يوم جديداً من مكنون الكون. لهذا يدعو الأستاذ الرائد إلى اقتران الإيمان بالعلم فى مصر التى ارتادت الإيمان قبل ألوف السنين وحدت وسبحت ورنمت .

إنى لا انسى ما رأيته فى متحف لندن مأثوراً عن العدالة الحديثة.

إنك موجود دون أن توجد .

مصور دون أن تصور.

هادى الملايين إلى السبل.

وهنا يتضوأ معنى الآية الكريمة «الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك ... ».

ولكن العصر لايذكر الذكر كما يقول الأستاذ حامد سعيد فملك القوة ولم يملك الحكمة.

ان العــمل الفنى عنده (ليس ترفــاً بل هـو حق من حــقــوق الانسان) العمل الفنى تعلم وتكريم الحياة بالقيمة .

العـمل الفنى هو الذى ينجح فى أن يحـمل قلب العـامل بين حناياه على أن يهب ذلك القلب لكل قلب يتفتح للقياه .. هذا العمل الفنى من أى عـصـر سـحـيق يلغى الزمن ويوحـد الرؤية فى لحظة استبصار رائعة هى هبة من هبات النفس البشرية.

وقفت طويلاً عند قوله:

(ان مانسميه بالجماد معمور بالروح الشامل) إنه رؤيته .. عبر عنها فى آخر الأربعينات .

(إنه لسـعـادة أى يرى الإنســان الكون كله وبكل مـافـيـه من نوعيات وحـدة واحـدة .. ان يرى الانسـان ويبصـر مـدركاً حضـور الكل فى الجزء .. ان يرى الحضـرة المقدسـة ينبجس اشعاعها من كل شىء) ص ٢٢ .

بهذه الرؤية الشمولية بواقى الفن فى المتحف المصرى..

يتعرف مضـاء العزم وهدوء الإيمان ونقـاء الشكل، وتحلى الحق فى الخلـق ، ومـعنى الخلود، ونظرة الصـقـر ..وقـسـوة الحـجـر ..وطلعة **** .. ورقـة الزهر .. ودقـة ابن آوى .: ونعومـة الثعبـان .. وغـرابة الحـيـوان .. وضـوء الأنوثة وشـمس الرجـولة .. وقـوة

القرن .. وخفة الريش ..*** الجناح .. وثقل الجبل .. وأناقة الطير وغير هذا من هذه الصفات التى تتشعب وتختلف وتضاد ولكنها تتقابل فى القطعة الفنية الواحدة فى حلول سعيدة موفقة فى الفكرة الفنية المصرية:

يعلمنا المتحف المصرى التأمل البطىء العميق . ذلك الفن الرائع المنسى ما من فكرة من أفكار مصر القديمة الا وهى ثمرة أجيال من التأمل يتقابل فيها البدائى والنهائى ..والظاهر والباطن.. والداخل والخارج .. والعارض والخالد .

ما (سحمت) و(هاتور) و(رع) و(اوزوريس)*** لها ما وراءها. وهى قادرة على الإيحاء بإيحاءات لاحصر لها ولاحد لأشكالها بل يأخذ كل من *** ملء نفسه ووسع قدرته ولون وعائه ولها معين لاينضب وسعة لاتحد.

هذا الحب كله للبيت يضاعف معنى إهدائه إلى محافظة القاهرة مبنى وحديقة وأثاث ومكتبة إنها القاهرة وأنه عاشقها الفنان حامد سعيد .

طويل ومليء وريق وشيق حديثه عن الفن والعلم والدين فى عمق عميق.

من فرائده فى التعبير قوله يصف مولد ابنته:

(جعلنى نموها أكمل وعيى بكيانى لأنى لم أكن واعياً بنفسى وأنا طفل).

كتاب بناء الانسان والبيت ص ١٥ .

ومن فرائده أيضـــاً فى هذا الكتاب (لست مع المســـاواة بين الرجل والمرأة .. لا مـــســـــــاواة انما هناك اخـــتـــلاف إلا أنه اختـــلاف من طبيعته أن يكمل بعضه بعضا من حيث طريقة الفكر والمشاعر فالمرء يتعلم فى البيت أنه النصف وأن النصف الآخر يكمله).

ويقول : (البيت هو المدرسة الأولى التى يتعلم فيها الأب والأم والطفل معنى الحياة ومن هناك كانت أهمية البيت كركيزة حضارية مهمة).

ويتمثل قول كيتس الشاعر: (أن الفنان أمام الشجرة يصبح شجرة).

الأستاذ حامد سعيد يرى أن القدرة على التوحد مع الأشياء أهم وظائف الفنان.. هبة القدرة على التوحد وعدم الانعزال فى الذات هو كرم نفس الفنان ص ٣٤ .

أقول من حبنا النيل، نرى فى الماء المثل الأعلى للإنسان وهو اوزوريس فقد رأى القيمة فى الواقع .

فالماء لايتكبر بل هو **يختار المكان المنخفض بكل تواضع والماء** يأخذ الصور الثلاث الغاز والسائل والصلب ولو انسحب الماء من الكون لاختفت الحياة «**وجعلنا من الماء كل شيء حي**» .

ويتساءل الأستاذ حامد سعيد :

الإنسان الحاضر اخترع الميكروسكوب والتليسكوب ويمكنه أن يرى الكرة الأرضية ومع هذا هناك فاصل بين الإنسان والكون. الإنسان المتقدم وليس المتخلف يسيء إلى الكون تحت فكرة التلوث.. تحت فكرة القنابل الذرية والغازات السامة وتسميم الأرض والمياه وتلويث الغلاف الجوى.

نحن نتعلم القراءة والكتابة ولكننا لانتعلم **فن الرؤية** وهو أن يرى الانسان بأعماق قلبه وليس فقط بآفاق عينيه .. إنه فن **التواصل** بين الإنسان والطبيعة .. والتواصل بين الإنسان والأشياء.

يقول الأستاذ حامد سعيد :

الإنسان الكبير يتأمل الزهرة الصغيرة ويجعلها تملى عليه سيكسب ولن تكون هناك خسارة كما فى الحرب .

مصر والرومان .

من كتاب ا/ حامد سعيد بناء الانسان والبيت .

(قارن وجه مصرى بآخر رومانى ..

شىء مـؤلم أن تشـعـر أن الرومـان بجـلال قـدرهم من قـوة وجبروت يثيرون فيك الشـفقة بسيماهم على وجوههم ، وجـوههم لا تسـر .. لا طمـأنينة .. *** لا تواصل فى النهـاية بينه وبين أعماق الكون . بينما أبو الهول وحول رأسـه ذلك الفضـاء الكبير يشعرك أنه هو انسان عين الحياة .. هو بؤرة الوجود كله .

كـيف أمكن لهـولاء النـاس أن يضـعـوا هذه اللمسـة العجيبة؟

لا يمكن أن تفتعلها انما هى نتيجة حضارات تسللت وأنماط فى الحيـاة تجعلك فـعلاً ملتحـماً بالجزء الواعى فى هذا الكون). ص ٤٦ .

وهذه وقفة عند سيناء :

رأى المصريون القدماء سيناء قبلنا .. وكشفوا الصحراء على جانبى الواد بشـهادة الأعمال التى صنعوها من جميع أنواع الأحجار الموجودة بمصر . لم يتركوا لنا حجراً نكتشفه فكلها اكتشفوها وصنعوها وعبروا بها سواء فى إناء أو تمثال أو بناء ، لقد انفتح قلبهم وتناول نشاطهم هذا الحصور الصحراوى العجيب الذى تعتبر البلاد مجرد واحة على ظهره فى خضم النيل فلم يكن

بغـــريب أن تكون النقطة الأولى فى تكوين هذا البلد هـى الوعى بالكون *** فطبيعتـه تفرضـه علـى وجدان المصرى (كتـاب بناء الإنسان والبيت ص ٧٣).

(كتاب أساسيات الشخصية المصرية).

مـقـدمـة مكتنزه تكشف عن الجـذر والسـاق والأوراق (لقـد أثمر هذاالبلد المعطاء - فيما أثر - عطاء فريداً متميزاً هو **الشخصية المصـــرية** نوعية من الوجود البشرى زاخرة بالقيمة تتجلى هذه النوعية من الوجود فى الأزمات وفى روائع الأعمال التى نسميها آثار.

● الفن والدين :

الفن هو العمل الإنسانى الذى يشرح الصدر للدين، والدين هو الغاية التى يقوم من أجلها العمل ليحيا القلب .

● حـسـب المتـحـف المصـرى أن يجـود بشـىء من بهـاء تلك السعادات يجود بها عطاء الفن المصرى.

● فى الفن المصرى من مـعـانى الاسـتـقـامـة والتـرفع والورع والاحـتشـام أكثر مما يرويه التـاريخ وتفصـح عنه النصـوص. شىء من دقـة هـندسـة التـشـكيل بـالغ الصـرامـة وروائع اللطـف وكـونى الاعـتـبـار نقـابله فى سـرائر تشكيل هذا الفن ينم عن قلب حـافل بالمعنى رقيب على نفسه وحسيب.

● فى الفن المصرى طموح نابض تتوقف عنده الأنفاس وتسكن الجوارح لاتجمدا بل تسمعا لنداء علوى استشرافاً» لأفق من وراء الآفاق كلها هو حنين لآخر لاتراه.

● إن توقف الفن المصرى عند كل من المرأة والطبيعة مما تشيع به من ود واحترام وتقديس ورهبة ورهبنة، قد ساعد على الوصول إلى درجة من الموضوعية والنضج فى الإدراك لا نظير لها إلاَّ فى القليل النادر من روائع تراث الانسان.

● إن كلاً من المرأة والطبيعة فى ذلك الفن لم تؤخذ غلاباً، لكن حباً ووداً وتواصلاً وتواجداً وامتزاجاً فأعطت وساعدت وأسعدت وكملت واكملت وشفت واتاحت عندما شفت بصيرة بالمعنى أرق من النسيم وأرق من الكلام.

● إن معانى الفن المصرى فى مجالى الجنس والطبيعة وما كسبت به من وقار جميل .. رهافة أنس جليل ..وكرامة .. ورهبة .. وتنعيم .. إن هذه المعانى لتعطى عطاء مغدقاً بغير حساب إن نحن لم ننخدع ببساطتها الظاهرة فظننا أنها طفولة العصور الأولى .. وإن لم نأخذ ما يقال عنها دون الاستماع إليها وان لم نفرض عليها قصورنا بديلا عن أن نسمح لها أن توسع حدود إدراكنا.

● إن الكون كما أدركته النفس المصرية وترجمت عنه فى فنها غير محدود الأرجاء ، بل قناع اللامحدود والجمال فيه ليس أمراً عارضاً بل قوام أساسى منوع القسمات متفاوت الدرجات ، رهيب خطير إلى حد الخوف بلا رجاء .. أنيس ودود إلى حد الرجاء بلا خوف .. وهو فى جدية من الرهبة والأنس العظيم.

● الأسرة مزرعة الدين الأولى، أى منابت المشاعر الأساسية للحياة ، يتشرب فيها الانسان فى مدارج حياته المبكرة حضوراً قوياً ومقوماً .. رحيماً ومنعماً ..عظيماً وحاسماً ويعرف بالتجربة المباشرة الحميمة معانى التعاون والوحدة والحب ..ويمارس بالفعل مشاعر الطمأنينة والسكينة والوفاق .

● والأسرة تجربة مثمرة لأفرادها . إن تفوق كل منهم على نفسه عطاء للآخرين . وإن رأى كل منهم التزامه نحو المجتمع الأم هو الشرف والترف .

الفن المصرى والفن الإسلامى وهما شاهدانا الأساسيان على فلسفة هذا المكان واستشفاف الغاية يهديان إلى تربية البصيرة والنماء بها إلى سماء المعنى.

لقد حان الحين لنبرأ من تزييف الثقافة لنشهد مولد رؤية

للحياد وللواقع وللأمل جديدة عطية موصولة بأصولها ومنطلقة إلى أهدافها .

لقد حان الحين لنبدأ من سطحية الحياة وضحالة الوعى لنؤكد الارتباط والالتزام والتوحيد مع محور الحياة. ان التواصل مع العصر وحده فى استحداثاته والتواصل مع القديم كله وان أتيح غير كاف والجمع بين هذا وذاك رغم أهميته غير كاف . لابد أن يتغير الكيان الراهن للإنسان بإعادة بناء الشخصية.

(كتاب بناء الانسان والطفل).

● الطفل :

يبدأ التعليم عنده من حديقة الحيوان باعتبارها دنيا كاملة : نبات وحيوان وطيور وأسماك ومياه.

المتاحف .

السينما .

مسرح العرائس.

جمعية الحشرات فهى من أروع ما يكون ، اقرب إلى عالم المجوهرات التى نقتنيها .

المتحف الجيولوجى لنرى الحياة فى صورها الأولى.

الصور الفوتوغرافية الجميلة فالصور الرائعة قادرة على الايحاء والتعليم **** بدون كلام.

مملكة النبات فهى المملكة الأم .

عالم الأفلاك الرائع الجميل .

تراث الانسان ممثلاً فى حضاراته العظمى .. فنونه .. دياناته .. عظمائه.

هنا تكون ثقافة الطفل متينة البنيان.

أين أطفالنا من هذا كله؟

لنا الله .

لابد من تزويد الأجيال الجديدة بحصاد التاريخ ثم إشعارهم بمسئوليتهم فكما زرع الأقدمون لنا ولهم ، عليهم ان يزرعوا للأجيال القادمة من بعدهم وهكذا تستمر حلقات الأجيال فى نماء من حيث القيمة والمعنى. والمفروض أن نستفيد من الخبرات التى نعيش بها اليوم، نؤكد الجيد منها ونحاول أن نستفيد من القاصر والسيىء فيها.

مايكل أنجلو

مايكل أنجلو بعد أربع سنوات من العمل المتواصل على (سقالة) يرسم سقف كنيسة

والكل منبهر بما أبدع لدرجة أن (جيته) كان يفتخر لانتسابه

إلى البشر لأن مايكل انجلو من البشر أما مايكل انجلو نفسه فقال بعدما اتم العمل : **لو طلب منى أن اعمل هذا العمل مرة ثانية، لعملته أحسن.**

هذه هى النفس الحية التى تسعى إلى النور كالنبات .. بمعنى أن هناك دائماً الرغبة فى عشق الأكمل ..

ينبغى أن نعلم الأطفال ليس فقط من الكتاب وليس فقط عن طريق الذهن بل نحتاج لكل أنشطة الانسان من علم ودين وفلسفة واسطورة وأدب وموسيقى والعاب حتى لكل انشطة الانسان من علم ودين وفلسفة وأسطورة وأدب موسيقى والعاب وحتى النكات فكثيراً ما نعرف عن الشعوب من نوعية نكاتها وأن نراعى هذا فى طريقة التنشئة ذاتها.

(كتاب بناء الإنسان والتعليم):

يدعو إلى ركائز أولها : تدريس معنى الزراعة . كيف نشأت وتطورت ومن دراسة النباتات ونموها تتكشف للدارس علوم الطبيعة والكيمياء والجغرافيا والتاريخ والحضارة والرياضة وكلها موظفة فى مكانها من الحياة.

الركيزة الثانية : كيف يعلم نفسه ويربيها . نتجنب إعطاءه المقررات، سلات من المعلومات يتحول فيها إلى (برنامج أوائل

الطلبة) حيث تلقى الاجابات المحفوظة عن ظهر قلب. اجابات صحيحة ولكنها تلقى ببغائية وبعد ذلك تنسى.

لابد أن يعرف كيف يكتسب هذه المعلومات بأن يبحث ويراجع ويبتكر ويحيا ويتفهم المشكلات من حوله ومكانة هذه المعلومات من صلب الحياة.

الركيزة الثالثة : دراسة العصر . هذا اللون من الدراسة لاينتهى.

فيم يختلف العصر عن غيره من العصور؟

ماالذى أعطى هذا العصر كيانه وشخصيته؟

ما طبيعته؟ ما ميزاته؟ ما عيوبه؟

كيف نشأ وكيف تأزم؟

ودراسة العصر غير الموضة وآخر صيحة.

دراسة جادة تصنع الانسان المعاصر.

الركيزة الرابعة: مكتبة نوعية.

فى السينما نوعية من الأفلام .

فى الإذاعة والتليفزيون نوعية من الأحاديث والبرامج موجودة الآن.

فى تخطيطنا للتعليم لابد إذن من تخطيط للمكتبة المصرية التى يعلم التلميذ نفسه فيها.

إذا أردنا انساناً مصرياً معاصراً حقاً فلابد أن نبدأ بأن خطواته الأولى نحو المعاصرة من البداية الأولى .. حتى من لعبه فى البيت.

إن التلقى فقط السائد فى مدارسنا هو أحد أسباب الانسان المصرى المعاصر الذى لاهم له إلا النقد .

إن الفضل فى شهرة المصرى المعاصر كرائد للحضارة فى العصور القديمة والوسيطة يرجع إلى القيم التى أمكنه من خلال العمل وفى العمل أن يكشفها وأن يحققها فى أعمال قادرة على أن تبثها وتنميها فى النفس البشرية إلى اليوم.

وهذه النوعية من العمل المفروض أن تكون محور التربية والتعليم.

ومن عباراته الراسخة والصالحة أن تكون دستور حياة ودستور عمل أو محاور أساسية لكل مصرى هى:

أن يعرف أن مصر القديمة كانت عظيمة ليس لأنها بنت الهرم ولكن أدركت أن هناك وحدة فى الحياة وأن هناك مقياسا خلقيا ..وأن هناك ضميرا ومسئولية (وهذا كله ركائز شموخ وخلود الهرم). وأنه لابد من وجود تكافل اجتماعى وأسن هناك مايسمى بفعل الضمير.

يوزن أمامه قلب الإنسان***** وأن الحياة لاتحلو إلا بالتعب والعمل الجماعى واحترام الحياة.

هذه القيم هى التى صنعت الشعب المصرى.

وقد طرح سؤالاً : لماذا الاهتمام بمشاكل بناء الانسان.؟

وأجاب : لأننا اليوم وفى هذا العصر وسط قمة العدوان على الانسان من الانسان نفسه بل من الانسان المتقدم على المتقدم وليس فقط على الشعوب التى يسمونها فى غطرسة (العالم الثالث). إن الدول الصناعية الكبرى الرائدة تعانى من عملية نمو القيم الانسانية.

والمثل :

نيتشه الذى يدين بالقوة.

فرويد الذى اختزل مشاعر الانسان إلى الطفولة والجنس واللاوعى.

كارل ماركس الذى شوه الانسان يوم جعل العلاقة بين الإنسان ووسائل الانتاج هى الأساس.

لقد اختزل ثلاثتهم الانسان حين ارتفعت به اديان الشرق.

وراء هذه الشخصية الثرية السرية بيت حافل بروائع الفن الاسلامى فى حى علامة من علامات القاهرة الاسلامية وله غير كتبه التى حاولت الوقوف عندها .

جداريات عميقة المعنى .

جدارية اوزوريس.

جدارية انطونيوس.

ثلاث جداريات نداء السماء.

ست جداريات فى العدالة والثورة البيضاء.

وقد حقق فى هذه الأعمال أمانيه للفن فهى ينطبق عليها قوله إن تعريفه للعمل الفنى بأنه العمل الذى ينجح فى أن يحمل قلب العامل بين ثناياه والقادر على أن يهب ذلك القلب لكل قلب يتوق للقياه.

أى لوحة رائعة هى هبة من هبات النفس البشرية.

قلت قليلاً من كثير . فالواقف على شاطىء البحر يرى اتساعه ولكنه لايسبر أعماقه ولا يحصى لآلئه .

لقد تكلمت فقط عن الرائد الأستاذ المعلم ، ولأنى من مريديه أقول مع شاعرنا شوقى:

قف للمعلم وفه التبجيلا ... كاد المعلم أن يكون رسولا

أعلمت أشرف أوجل من الذى ... يبنى وينشىء انفساً وعقولا

(١)

الفنان صلاح طاهر
عاشق الحياة والطبيعة والجمال

فى الأقصر روحانية وسر الشرق
وفى أمريكا : فيسفساء الفنون

حين يفخر آخرون بأنهم وُلدوا فى فمهم ملعقة من الذهب، يقول فى صوت هادىء عميق : (من حظى أنى ولدت فى بيت فيه مكتبة) .

وأمسك طرف الخيط.

كان والده مولعاً بقراءة كتب التراث ولاتزال مكتبته يطل منها بعض هذه الكتب فى الدين والأدب.

وكيف نشأه أبوه؟

ويتهدى إلينا صوته من جديد:

كان أبى يحفظنى قصائد الشعراء فى الثامنة من عمرى ويعطينى «تعريفة» على حفظ القصيدة (التعريفة خمسة مليمات) كثير من قراء اليوم لايعرفون «التعريفة».

أحفظ نعم ولكنى، من المعنى ، بعيد

بل كان فى الرابعة من عمرى، يحكى لى حكايات من ألف ليلة وليلة ... طبعاً متخطياً مالا يصح أن يقال للأطفال...

ألهب خيالى.

ويشاء القدر أن يكون لى أخ يكبرنى بعشرين عاما .. كان الأب الثانى وكان يشجعنى بلا حدود فى الرسم ويحضر لى الكراسات والألوان.

ويأتى دورالأم.

كانت والدتى لها مقابلة أسبوعية تلتقى فيها بمعارفها وصديقاتها من السيدات ..ومن بين هؤلاء، سيدة تركية تجيد العزف على العود وتغنى .. وأخرى تغنى تواشيح.

هذه الأسبوعيات وصلته بالموسيقى .

مرة أخرى تعود به الذاكرة إلى هذه الأعوام الخوالى.

كانت والدتى عندها فطرة سليمة .. أردت يوماً أن أشترى نحلة بعلقة فقالت له : خذ قرشين واذهب إلى الخراط واطلب منه نحلة بعلقة ونحلة بدوبارة ولكن اجلس معه وانظر كيف يخرط النحلة ..

توجيه عجيب .

وكان له خال يهوى العزف والغناء .

وخال آخر يقول الشعر ....

القراءة والرسم ... والعزف والغناء والشعر ... فى بيت .. مناخ فنى ترك بصمته فى أعماقه .

وبصمة أخرى .

كان فى شارع عبدالعزيز ، المكتبة السلفية ... هذه المكتبة لعبت دورا فى صباه فقد كان صاحبها محب الدين الخطيب يستقبل فيها الكتاب والشعراء كانت تضم فى الداخل، صالونا، تهوى عقول إليه، كل أسبوع.

وكان فتانا، يصطحبه والده إليها...

وذات يوم دخل المكتبة شاب راجع من انجلترا اسمه صلاح الدين العظيم فسأل الفتى الواعد السؤال التقليدى.

– عايز تطلع إيه ياشاطر؟

ورد الشاطر : «عايز أطلع رسام زى رفائيل».

فالتفت السائل إلى والد الفتى وسأله:

«كيف عرف رفائيل»؟

قال الوالد : ربما من أخيه .

وسارت الأيام وصار الفتى بدوره شابا وتخرج فى مدرسة الفنون الجميلة العليا سنة ١٩٣٤ وهى نواة كلية الفنون الجميلة فى القاهرة.

واشتغل مدرس رسم فى المنيا الابتدائية سنة ١٩٣٤ ثم فى العباسية الثانوية سنة ١٩٣٦.

وفى عام سنة ١٩٣٥ عمل معرضا فى نادى المنيا الرياضى.

وفي عام ١٩٣٦ عمل معرضا فى الاسكندرية فإذا به يرى فى المعرض، صلاح الدين العظيم.

فاكرنى؟ لقد صرت رساماً كبيراً .

وكان لقاء ..

إن الأطفال وأمهاتهم حين تسألهم عن رغبتهم ، يقولون على الفور:

مهندس ... دكتور ولكن الطفل والصبى صلاح طاهر استشرف إلى «الفنان» ... لقد اختار.

وفى هذه السن . أيضاً، إختار مرقى آخر من مراقى السمو .. اختار القراءة ... حتى التصوف قرأ فيه.

وتحكمت عادة القراءة فيه بدءا من الثانية عشرة.

ومن الطريف أن الذى استهوته القراءة، وصارت فى قلبه هوى..

والقراءة خلود إلى فكر يتطلب الهدوء..

هذا القارىء الصغير هوى مع القراءة الرياضة البدنية العنيفة فى سن الرابعة عشرة ودخل فى مضمار الملاكمة وفاز ببطولة مصر فى الملاكمة فى الوزن الخفيف المتوسط عندما كان يافعا (فى سن ١٧، ١٨، ١٩).

وحين كان فى المرحلة الثانوية بمدرسة فؤاد الأول أخذ دروساً فى الكمنجة .. ويبدو أن أخاه كان يرقب هذه الهواية الجديدة فى رضا وقرر أن يباركها فأهدى إليه كمنجة.

وكأن هذه الهدية شهادة وصول فعمل الفتى حفلة موسيقية فى بيت زميله فى المدرسة وإذا به يفاجأ بالأستاذ العقاد الذى كان صديقا لوالد ... «الزميل».

وكانت هذه المقابلة ، فتحا ، فى حياته ..

ما إن رأى الفتى الموهوب «الأستاذ»... عملاق الفكر العربى حتى وضع الكمنجة جانباً .. لم يعزف ولكن اقترب من العظيم العقاد وقال له :

● إن شوبنهاور كان يعزف كمنجة وعلى الرغم من فلسفته المتشائمة كان يقول إن الذى يجعل الحياة جديرة بأن تعاش هو الفن .

لقد عرف الفتى طريقه .. طريقه إلى قلب العقاد العظيم .

نسيت أن أقول : إن القراءة أمرى: حبها .. لقد كان قبلا، قد اشترى مختارات لشوبنهاور فى الانجليزية وقرأها..

دعاه العقاد إلى صالون الجمعة الذى يعقده فى بيته كل أسبوع وكانت بداية لها ما بعدها..

كانا يتناولان العشاء معاً ...وكانا يتربصان معا من الثامنة والنصف مساء حتى العاشرة..

كان العظيم العقاد يودع فى رأسه الصغير ثقافته الكبيرة العميقة الواسعة ..

اتصلت أسباب الشاب صلاح طاهر بالثقافة فى ينبوع ثرى الجوانب ... فى وقت كان أصحابه يسرحون ويمرحون..

يقول الفنان صلاح طاهر : الشباب عربدة ، ولكنه آثر الثقافة وعاشها ثم يقول كمن يتدارك وتغلبه ضحكته المجلجلة التى يخيل للمرء أنها تنبثق من أعماقه كشلال من البهجة :

العربدة موجودة ولكن العقاد فرض عليها الثقافة فغدت «عربدة ثقافية»..

كان للعقاد فى حياته وشخصيته أثر لاينسى، عرف الكثيرين والتقى بالكثيرين ولكن العقاد كان صرحاً لا يشائيه أحد.

توافق لصلاح طاهر، المدرس فى المنيا سنة ١٩٣٤، أن قابل شقيق عبد الحليم نويره وأجَّرا سكنا مشتركا فإذا بالفنان عبدالحليم يأتى ويسكن معهما ..وهنا اقترب صلاح طاهر من الموسيقى.

وفى سنة ٣٩ ، ٤٠ كان مدرساً بمدرسة فؤاد الأول الثانوية عاماً ونصفاً ثم أستاذاً فى الدراسات العليا فى الفنون الجميلة .

بصمة أخرى .. الأقصر ... طيبة أقدم مدينة فى الصعيد .

كانت كلية الفنون ترسل أوائل الأقسام فى مرسم الأقصر لمدة عامين.

وفى الأقصر قضى الفنان صلاح طاهر أربع سنوات زاخرة من عمره ...

كان يقضى الشتاء فى البر الغربى .. كانت حجرته تجاور حجرة المهندس الفنان حسن فتحى.

كانت هذه الفترة سياحة للروح والنفس .

ذهب يوما ما إلى وادى الملكات وجلس هناك على ربوة عالية وبدأت أفراح الأصيل ولا أقول الغروب فإن شمس مصر لاتعرف الغروب ولكنها فرحة فى الأصيل وفرحة فى الشروق .

فى هذه الجلسة بأعلى الربوة وجد نفسه والوجود من حوله ، أحس أنه وهذه الطبيعة المصرية شيئاً واحدا .. تمازجا .. اتحدا .. لم يحس بالزمان .. لحظة ربما طالت .. ربما كانت دقائق .. لحظة كلما تذكرها قال : تجربة روحية أعيش عليها حتى اليوم .

وتعلم التأمل فى الكون .. تعلم الخلود إليه والاستغراق فيه فتسكن نفسه وتهدأ روحه ويعمر قلبه يقين راسخ أن الله معه ..

عرف حلاوة الإيمان ...

وعرف حاجة الإنسان إلى الله ..

ولعل هذه الجلسة أتاحت لنفسه أن تتملى رقة الفجر وطلعة النهار وفرحة النور . وإذ تعلو الشمس فى السمت فى ارتفاع العظيم على اللغو ، وإبداع الجميل فى الوهج وإمتاع الغنى بالقيمة ، واتراع السخى فى العطاء .

لعله تملى رقة الفجر يغسل القلب من أتراحه ويغمره بأفراحه ويهبه النقاء كقطرة ندى والهفهفة كنسمة شذا . والرفرفة كعصفور هم بالتحليق .

فى الأقصر وأسوان رسم مئات اللوحات ... من الطبيعة والنهر والجبل .. والضفاف .

الفنان فى بداياته الفنية يقف طويلا أمام الطبيعة مبهوراً بما أبدعه الفنان الأكبر .. وهنا يستوحيها ويستلهمها ويستقيها ويترشفها ويستمد منها .. ويرسم مباشرة وهذا يعطيه مخزوناً ومذخوراً كبيراً .. والتحم صلاح طاهر بالصحراء والصعيد والفلاحات والإنسان والمكان .

إن الطبيعة أستاذ كل أستاذ ، والفن إعادة صياغة للطبيعة فى الشكل زائد الإحساس به .

ومنذ القدم أحب المصريون النيل والمركب والأرض والسماء والنبات والحيوان فغنى لهم الشجر وسهر معهم القمر وأعطاهم النيل الخير كله فعاشوا أى عرفوا كيف الحياة لا كمها وأبدعوا الفن وأعطوا بدورهم الحضارة .

وقديما علمت الطبيعة المصرية ، المصرى، التلوين باللون والظلال والميل كالشمس نحو المغيب والاعتدال كالشمس فى رابعة النهار ووهج الظهيرة .

وعلمت الطبيعة المصرية ،المصرى مزج الألوان كزهر الرياض وأفراح الأصيل .

وعلمت النفس المصرية المصرى الدبيب كالنبتة تخرج من الأرض ، والوجيب كالحفقة تختلج فى القلب .

علمتها الهمس كوشوشة الربيع للأزهار ، واللمس كبسمة العين للنوار.

ومع هذا لم يكن طموحه راضياً مع أن الشباب عادة ، يملكه غرور يحجب الحقائق ثم تأتى الممارسة فيتحدد الموقع .

ولكن الفنان صلاح طاهر كان فى قلبه شوق إلى فوق .. حلم بالإبداع، والإبداع خلق على غير مثال .

كان يحدث أن يرسم لوحة ثم لا يرضى عنها .. فإذا غاب عنها وقتا طويلا ثم عاد فاقترب منها، أحسها حبيبة إلى نفسه.

ولازمته عادة الطموح إلى الأحسن حتى فى سن النضج كان مع أعماله ، فنانا وناقدا.

كان الأستاذ صلاح طاهر فى هذه الفترة يحاضر فى الفن إلى أن عُين مديراً لمتحف الفن الحديث فى القاهرة سنة ١٩٥٣ .. ولكن الوظيفة الإدارية من أى حجم ونوع لم تستنفده ..وكم أكلت كثيرين وأجهزت عليهم.

كان الفنان فيه يعمل استديو حيث مكتب الوظيفة .. حتى الوزارة لم تستهوه .. جاءه منذ بضع سنوات مسئول يجس نبضه بشأنها. ولما كان الفنان الحق لا يداجى ولا يتقامأ لأنه الأكرم على شعبه فقد انصرف المسئول يائسا .

ويضحك العارفون فى مرارة لاتخفى ويقولون ليته قبل ووفر على مصر كثيراً من النكبات .

تزول المناصب والزيوف ويبقى عطاء الفنان.

وقد أعطى صلاح طاهر كثيراً وطويلاً .. لوحات ومحاضرات .. فيوضا.

سمعه مرة الفنان جمال السجينى فقال جملة أو تعليقاً غير حياته .. كان صلاح طاهر فى محاضراته يقول إن أول شرط فى الفن ، عملية الابتكار فعلق جمال السجينى على الأثر :

يتكلم عن الابتكار وأسلوبه أكاديمى..

ولم يكن جمال السجينى مجحفاً فإن صلاح طاهر كان يعيش وقتئذ مرحلة استهداء الطبيعة .وفى الواقع إن الصورة الطبيعية مهما بلغت قد تكون فيها أستاذية ولكنها فى النهاية «مهارة يد» ولو كانت صنعة قادرة متمكنة .. والرجل كما يقول «اناتول فرانس» هو الأسلوب .

هنا انتقل صلاح طاهر إلى الفن التجريدى .وهو موسيقى العين.

وفى سنة ١٩٥٧ وجهت إليه أمريكا دعوة مع مجموعة من الأقطاب لزيارتها ولبى ليرى فنانى العالم الجديد .

كانت رحلة طوافة زار فيها مدينة «بوسطن» ورأى فيها معرضا موسعاً شاملاً .. ورأى فيها لوحة أمريكية تجريدية جمعت كل الخصائص فى الفن الفرعونى والفارسى والغربى والصينى.

كان مقدرا لهذه الزيارة ثلاثة أيام فمكث سبعة أيام ..وحين عاد إلى مصر انتقل إلى التجريد البحت عاما ونصفا ولكنه لم يستشعر الرضا.

من جديد لم يستشعر الرضا .

.. أحس وكأنه يقلد ما رأى فرجع إلى الطبيعة نحو عامين إلا قليلاً..

عاد إلى التجريد مرة ثانية ولكن هذه المرة اكتشف نفسه .

وفى سنة ١٩٦٤ عمل معرضاً فى باريس وفى سنة ١٩٦٥ معرضاً فى لندن .

وفى العاصمتين الكبيرتين كتب كبار النقاد عنهما .

وآمن أن أقوى مافى الفن .. الإيحاء .

هنا خلود

أى أن الفن سيظل حيا يوحى.

وبدأ صلاح طاهر يعزف بالخطوط والألوان وغدت لوحاته سيمفونيات.

أبدع صلاح طاهر ستمائة لوحة من حرفين .. إنها مجموعة الهاء، والواو .

هو كل شيء وليس كمثله شيء .. يزول كل شيء ويبقى (هو).

٦٠٠ ستمائة لوحة لاتشبه لوحة فيها الأخرى استقلت كل لوحة بالتفرد والتميز والشخصية شكلا ولونا ورسماً.

٦٠٠ لوحة حشد لها خبراته على مسار رحلة السنين .. ستمائة لوحة تشهد بأستاذيته ورؤاه.

وولد الحلم

وتحققت الأمنية.

وصار له طابعاً ومرسما وأسلوباً ..

هذه المرة نقول نحن (الرجل هو الأسلوب).

ووقفت وراءه فى قمة النضوج فنوننا الثلاثة أودع الفن الفرعونى فى كيانه الرصانة .

رصانة الخط الذى عبر به الفنان المصرى محفورا وبارزا ..الفن المصرى الفرعونى الذى يجمع القوة والرقة معا فى إهاب..

قوى رقيق .. فيه طبيعة الزعماء الحقيقيين.

الزعيم القوى رقيق بشوش .. إنسان.

الفن المصرى يمزج بين القوة والرقة امتزاج نور الشمس والخضرة فى الديانة المصرية القديمة.

إن القوة فى الفن المصرى ، جلد وإصرار، وطاقة واستمرار. والرقة فى الفن المصرى راحة وواحة وسلام .

نعم الإعجاز فى الجمع بين القوة والدعة.

الحركة فى الفن المصرى القديم فيه من خفة ورقة الجناح بينما قبضة اليد فيها من صلابة الحديد .

الفن المصرى قادر من يومه على عكس السكون والحركة فى مكان واحد.. قادر على إيحاء الصوت والصمت معا.

إنه فن حى لأنه يجمع مافى الحياة من حركات وسكنات وأصوات وصمت وسائر ألوان النشاط ففيه حس التنويع والتقسيم الموسيقى.

كان صلاح طاهر يحلم بالابتكار يشتهى الإبداع والفن الفرعونى أهم ما فيه أنه أنشأ نفسه بنفسه كالحضارة المصرية.

الفن الفرعونى فيه الاتصال الحميم بالحياة .

الحياة الأولى .

والحياة الأخرى.

الدنيا .. والدين بهما تعلق القلب المصرى أما الحروب فلم تشغل مصر إلا أن يمس ترابها ، الرواسب والرواسخ الحضارية المصرية ملأت عليه نفسه فامتزج بها كيانه .

وتأثر الفنان صلاح طاهر «بالفورم» الفرعونى..

بالكتلة..

الكتلة الفرعونية تنضح وتنبض بالحياة .. الحياة فى الكتلة الفرعونية مكتنزة .. زاخرة .

إن مصر أستاذة فى تحسيس الكتلة أعماق الوجدان، إن الحجر على يد مصر شف وخف ورفّ حتى كاد يبين.

الفن المصرى يبدو للعين بسيطاً وهو أبعد مايكون عن البساطة المتعارف عليها بساطته (تماسك) وحدة الكتلة) و(قرار النغم).

لن يرتفع فن التصوير فى أى بقعة من الدنيا كما ارتفع فى سقارة ولا يعدلها.

فى هذا ، إلا الاقصر وابيدوس.

وورث صلاح طاهر من رصيدنا في النحت فن القول بالخطوط.. فالكتلة عنده .. ليست صماء أو بكماء .. إنها توحي ...
والكتلة عنده تتمثل فى الجسم البشرى كما تتمثل في التكوين وهو

عنده فيه فروق دقيقة .. والحضارة هى الفروق والفن المصرى قبل الكل أعطاه فن البورتريه.

ذلك الفن الذى امتد فى الفن القبطى وجوه الفيوم والبورترية فى الفن المصرى والقبطى كانا له غذاء وعلامة.

أما الفن الإسلامى فقد أعطاه الموسيقية والفن الإسلامى زاخر بالموسيقى.

إنه والموسيقى الشرقية : صنوان.

الموسيقى فى الفن الإسلامى عمارة مبنية.

والعمارة الإسلامية موسيقى مرئية.

والباب فى الفن الإسلامى ، عزف منفرد.

والفن الإسلامى فى مصر قمة منذ احتضنة بالزينة والتحلية والتنمية فى لمس يقارب الهمس وهو على رقتة توثيق وتحقيق.

وتترعه بالراح والراحة فيفيض الرى على الحنايا والمنحنيات تبدو معه الأعمدة فى البنيان كأنها سيقان حية مملوءة بالغضارة النباتية.

وحين تشرع مصر فى التقسيم يسرى التنغيم فتغنى القباب والإيوانات بالنقوش والنمنمة ويحلو الشدو على الترديد والتجويد.

والفن الإسلامى فى مصر حين يطعم ويرصع يستجمع خبرات المكان الذى انطق الحجر ولعب بالذهب ومهر فى التشكيل والتصوير وهنا تخرج المشكاوات المصرية وكأنها صيغت من ضياء الجواهر النادرة فيما بين القصرين مما أغدقته ، على الفاطميين، القاهرة.

وبعد فنوننا الثلاثة تأتى الفنون العالمية روافد للنهر العظيم.

ماذا عن الفن اليوم؟

فيه يقظة وحيوية .. المتلقون زادوا ... الفنانون زادوا .. الفرص تعددت أمام الفنان المصرى بصورة .. لم تكن متاحة فى مطالع القرن العشرين.

ومع هذا فالمستويات الرفيعة ؛ لها ندرة النفاسة ...وهذا شأنها دائماً ...

قبل الثورة كان اقتناء العائلات الارستقراطية ، الفنون ، وجاهة ونعيم غنى وترف قصور..

ولا ينقض هذه القاعدة ظهور فلتات مثل محمد محمود خليل الذى أنفق كثيرا من ثروته على شراء الروائع الفنية أينما وجدت ثم إهداء متحفه للشعب ... وكان ما كان.

ومثل الأمير يوسف كمال الذى كان يصرف على كلية الفنون الجميلة.

المال الآن فى أيد لاتعرف دور الفن فى الحياة .. سمع الفنان صلاح طاهر عرضا، منادى سيارات يقول لأحد العمال وقد حال دون خروج السيارات من أحد الأبواب لمدة ساعة:

«الساعة دى على بـ «١٢ جنيه».

وتمتم الأستاذ الفنان .. اذن اليوم بكام ؟! وتذكر أن أول مرتب تقاضاه من التدريس كان اثنى عشر جنيها!!

★ ★ ★

ويأتى حديث رواد الفنون فى مطلع النهضة المصرية الحديثة.

أحمد صبرى فى البورتريه.

يوسف كمال فى المناظر.

راغب عياد فى الحياة الشعبية.

ويصا فى العمارة.

(٢) صلاح طاهر

وأبدع صلاح طاهر ستمائة لوحة من حرفى الهاء والواو .

فى الأقصر: عاش تجربة روحية استقرت فى قلبه وفنه إلى اليوم !

وللمرأة مساحة واسعة فى حياة صلاح طاهر.

الجزار فى السيريالية

حسين فوزى صاحب اللوحة التاريخية.

حامد سعيد فى ثقافة الفن وفلسفته.

ويبارك جهودهم المعطاءة ويتمثل بقول نيوتن (إذا كنت أرى أبعد ممن سبقونى فذلك لأننى واقف على أكتافهم).

دماثة ووفاء

★ ★ ★

الفنان صلاح طاهر فى مرحلة يسمونها (أعلى القمم) يقف وراءها رصيد كبير من الإبداع.. ومن التقييم.

مئات اللوحات.. ومئات المقالات أيضا هو كاتبها أو هو

موضوعها.. وإذا شئنا التحديد أستطيع أن أقول واثقة أنه كتب مائتين وخمسين مقالة وكتبت عنه ثلاثمائة مقالة... و.

وعمل مائة وثمانين برنامجاً تليفزيونيا.

وأعطى مئات من المحاضرات.

وأقام فى مصر وحدها ثمانين معرضا.

ولعله من القلائل الذين أقاموا معارض فى الأقاليم.. فقد أقام معرضا فى كل من: أسوان - الأقصر - أسيوط - المنيا - بنها - دمنهور - طنطا.

كما أقام المعارض فى البلاد العربية وتحمسوا لها لأنها تجريدية والفن الإسلامى تجريدى زخرفى.. ومن هذه البلاد: السعودية «جدة» والكويت - قطر - بيروت.

أما البلاد الغربية فقد زار وعرض فى انجلترا وايطاليا وڤينسيا واليونان وأمريكا (سان فرانسيسكو) بوسطن - نيويورك واشنطن لوس أنجلوس).

واشترك الفنان صلاح طاهر فى خمسة وستين معرضا مع فنانين أخرين (مجاميع) وقد أقلع الآن عن معارض المجاميع.

ألوان ... ألوان من العطاء.

وبمناسبة «الحضور الأدبى» فى مكتبته، أقول : إن الفنان صلاح طاهر أحب الأدب وأحب الموشحات وأحب الموسيقى شرقية

وغربية. والموسيقى وصلاح طاهر فى صحبة ودود موصولة... فإذا رسم لوحة شرقية سمع موسيقى شرقية... وإذا رسم لوحة حديثة من أى لون ومنحى، استمع إلى السيمفونيات.

ولهذا يهمه الحس الموسيقى والشاعرى فى اللوحة فالذى يحرك الوجدان فى رأيه ، وهو صادق: الموسيقى والشاعرية.

ومن مذخوره فى عالم الصداقات الشامخة:

الأستاذ العقاد.. أم كلثوم - زكريا أحمد ·- بيرم التونسى ... وكثيرا ما كانت تتحلق الندوة.

كان الأستاذ إبراهيم خورشيد يسكن قبالة الفنان صاح طاهر فهو جار وصديق فما أن يرى الشيخ زكريا حتى يسرى الخبر السعيد فتلتحم العمارتان ، المتشوقون والمستمعون .

وتمتد السهرة الجميلة الفنية.

كان الشيخ زكريا يصل الساعة الثامنة مساء ويخرج فى العاشرة صباحا من اليوم التالى. وغالبا ما كانت هذه السهرات الممتعة موعدها الخميس من كل أسبوع إلا إذا طرأ طارىء لأحد أقطابها.

وتسأله السؤال التقليدى: ما أعز صورك عندك فيقول: تظل كل صورة أرسمها عزيزة حتى أتخطاها إلى الأحلى.

وكيف لا تكون الصورة عزيزة وفيها من كيانه.. فإذا كانت بورتريه ففيها من كيانه وكيان صاحبها.. فقد اتخذ قاعدة فى حياته ألا يرسم بورتريه إلا إذا اقترب من صاحبه.. وسافر فيه.. لأن البورتريه ينفذ إلى الأعماق.

قدم مرة صورة لشخصية عالمية نسائية أوروبية فإذا بها قوية الشخصية تصطنع اللطف من باب إضفاء الأنوثة على نفسها ولكن الفنان صلاح طاهر يضحك ضحكته المجلجلة ويقول: هذا البورتريه أتعبنى.. إنها: (راجل قوى عامل ست).

عندما رسم الرئيس جمال عبدالناصر فى أوج قوته، لم يكن من السهل التبسط الذى يكشف أبعاد وأعماق الشخصية فتوسل بالحفلات الرسمية للاقتراب منه.. مجرد وسيلة.

بقيت صفحة عزيزة مشرقة من حياة فناننا صلاح طاهر.. صفحة حميمة تعكس دور المرأة فى هذه الحياة الخصبة المتدفقة العطاء.

المرأة فى حياة الفنان صلاح طاهر تشغل مساحة واسعة وتحتل مكانا مرموقا شيقا ومشوقا.. فالمرأة فى حياته «أم» و«حبيبة» كانت صورة مشرفة للمرأة.. فقد كان لها دور كبير فى حياته.

الزوجة كان زواجهما التقاء روح ومشاعر وفن لقد سمعها تعزف سوناتا لبتهوفن على البيانو فبهر بها وانجذب إليها وتقدم لخطبتها.

وكشفت له الأيام فيها، عن نحاتة رائعة وفى بيتهما الآن بعد رحيلها عصفور جميل نحتته من الحجر الجيرى.

ومن صفاتها النوابغ أنها كانت واسعة الأفق فيما يتعلق بعلاقاته الاجتماعية.. كانت واثقة من مكانها ومكانتها.

لقد رأيت هذه السيدة الكريمة وأحببتها واتصل بينا الود وصادف.. كثيرا ما كانت تبتسم وهى تحكى لى أخبار المعجبات خاصة وكثيرا ما تنجم عن هؤلاء مآزق فى بيوت المشهورين ولكن هذه السيدة كانت وكان بيتها واحة وراحة وسحابة غادية هى ظل ورى.

ومن طرائفها أنها استنت أسلوبا فريدا.. كانت تقول لمن يداعبها: أنا أحب اللى بيحبه.

قمة الإيجاز والإعجاز.

وتنتفى المشاكل بل هى لا توجد أصلا.

وتصفو الحياة وتحلو وتستحق أن تعاش.

ورحلت هذه السيدة كنسمة صيف.. ومن رحمة الله بالفنان

صلاح طاهر أن الفراغ الكبير الموحش الذى تركته، استقطبه ابنهما الفنان أيمن..

وهو فنان من طراز أخر..

إنه يعشق الفوتغرافيا وهى تعشقه فتنصاع له وتؤدى عنه وتحقق له أمنية الصورة كما يتمثلها ويتمناها.

ومن خلال هذه الفوتغرافيا التى وصل بها أيمن إلى مرتقى عالٍ.. قدم أربعة أفلام غاصت فى البحر وصورت عالمه..

وكما صور أيمن تحت الماء صور الصحراء.. وكم أعطت الصحراء المصرية الفنان المصرى منذ ناجاها اخناتون وناغها تسابيح وترانيم للخالق الأعظم الذى أبدع مصر على غير مثال واديا وضفافا ونيلاً وصحراء، وسماء وأرضا وخفضا وقلبا وروحا..

وتتواصل الأجيال..

وتتواصى.. وينجب أيمن ولدين أحدهما يحب الجمال والآخر يحب القراءة والفكر..

لقد خلق هذا البيت للفن: أفياء ولألاء وعطاء..

الفنان مختار

الفنون أسرة واحدة تنبع من الشعور الذى يشكله الفنان، كلمة أو نغمة أو رسما، أو نحتا.. ولهذا يقول الفرنسيون بالنفس العاقلة واليد المفكرة.. ولم لا تكون اليد مفكرة وهى تعزف وترسم، وتلون وتسوى الحجر تمثالا ناطقا بعد تحسيس الكتلة، مشاعر الوجدان.

من هذا المنطلق أكتب عن «مختار» الفنان.

كان مختار فى وقته ، تعبيرا فنيا عن الوطنية المصرية يواكب التعبير الاقتصادى ممثلا فى طلعت حرب، والتعبير الفنى ممثلا فى نهضة الأدب المصرى ورياداته، وتطور الموسيقى المصرية والغناء المصرى والمسرح المصرى.. يواكب التعبير السياسى ممثلا فى الثورات الشعبية ابتداء من ثورة ١٩١٩ بل اشترك مختار فنيا فى الجنازات القومية فحمل الشباب فيها تماثيل لمصطفى كامل ومحمد فريد، من صنع مختار كما عبر عن مقاومتها فى تمثال (الخماسين).

وهكذا أرانى كاتبة، انبع فى هذا الموقف عن أساتذتى من الرواد. «العقاد» الذي ارتفع صوته عام ١٩٣٤ عند قيام معرض

الفن التشكيلى ينادى بإعطاء المصريين حقهم من التقدير وعدم إيثار الأجانب على الفنان المصرى حتى لا تختنق المواهب المصرية ولا يحبط الفن المصرى.

العقاد الذى كتب عن الفنون بل إن قصيدته «ترجمة شيطان» عمل خالد يجمع بين الأدب والفن.

أنبع عن «المازنى» و«طه حسين» الذى كان عضوا عاملا فى جمعية محبى الفنون الجميلة حتى وفاته.

أنبع عن لطفى السيد وتوفيق الحكيم ومحمد حسين هيكل - ويحيى حقى وكلهم أعضاء فى هذه الجمعية.

«مختار» من مصر.. تعامل مثلها مع البيئة مكانا وإنسانا.. نباتا ونهرا وشمسا.. مصر الزراعة التي هى مصر الفن.

زرعت مصر الحجر، بعد الأرض فشكلته فنونا وأشكالا مختلفة. من الحجر بنت البيت وشيدت المعبد، وسوت التمثال ورفعت الهرم.

وعلى الحجر، كتبت مصر .

حولت مصر الصخر إلى حجر كريم حين روته بالمعنى وشحنته بالرؤى ووشوشته، وحملته من أسرار الفن والأدب والحكمة والدين ما جعله مصدر تاريخ ومظهر حضارة.

والتصوير المصرى تصوير بالنور على الحجر ولهذا هو مليء بالرؤى وبين النور والحجر تتسلل المياه رمزا لانسياب الفكر.

إن التكعيبية والسريالية القائمة على التجريد وتجاوز الشكل بل تجاوز المنطق، والتطويح إلى ما وراء العقل، يتفوق عليها الفن المصرى القائم على نقاء الشكل مع الاحتفاظ باللمحات الإنسانية فهو بسمة إيمان على صفحة الوادى.

إنه كالطبيعة المصرية نور وحجر وصفاء.. تشيع فيه الوداعة من البسمات الرقيقة اللطيفة حتى لتبدو التماثيل كأنها من لحم ودم.

وقد تشرب فن مختار هذا كله ونبع عنه واستقى منه.

وحين تتحول الكتلة إلى مرآة لقلب بشرى، يولد فن النحت. يقول «هنرى مور» وهو رائد فن النحت الحديث:

(أعطى كل شىء إذا اتيح لى أن اكتسب الإنسانية الماثلة فى التمثال المصرى القديم.. هذا السكون والجلال).

هذه الإنسانية اكتسبها «مختار» بالوراثة الحضارية. لم تشغل ثورة عام ١٩١٩ مصر عن الفن هواها وهوايتها منذ القدم فقد أثبتت الوجود المصرى على مختلف الساحات حتى ليسميها توفيق الحكيم «عودة الروح».

وحين ركز المحتل على إضعاف الجيش وقتل التعليم بقصره على المرحلة الابتدائية وتخريج مجرد موظفين للإدارة البريطانية، ووأد الصناعة، وبث الفرقة السياسية.. أفلتت الفنون لانشغال العدو عنها.. بل وأفلت التعليم والصناعة التى أقام لها طلعت حرب صرحا: بنك مصر وشركاته.. أما التعليم فقد اكتتب الشعب عام ١٩٠٨ لإنشاء الجامة الأهلية التى صارت عام ١٩٢٥، الجامعة المصرية.. الجامعة الرسمية.. كما قامت مدرسة الفنون الجميلة والجمعية المصرية للفنون.. ونهض الأدب من كبوته.. وولدت القصة المصرية.. أما الموسيقى والغناء فقد ظهرت كوكبة من الموهوبين ملحنين وعازفين ومطربين. ويتحدث الدكتور حسين فوزى فى كتابه (سنباد مصرى) حديثا ممتعا عن الموسيقى فى تلك الفترة.. وظهرت أم كلثوم. وفى العشرينات عرفت مصر، المسرح الغنائى بل قامت نهضة مسرحية باركها طلعت حرب الذى أنشأ التمثيل العربى وتياترو الحديقة الذى مثلت عليه أوبرات كاملة. واستقدمت مصر روائع الفن العالمى وكان معرض روادن ومعاصريه الذى أقيم فيها عام ١٩٣٩ حدثا ثقافيا مهما. وقبله المعرض الفارسى سنة ١٩٣٥ احتفالا بذكرى الفردوسى .. وكان المعرض الأسبانى بسراى إسماعيل سنة ١٩٥٠ من الأحداث الباقية فى ذاكرة القاهرة.

في هذا المناخ الصحي والنقي فنيا على الرغم من المعاناة السياسية، أعطى مختار أربعين تمثالا من الرخام والبرونز وأقام تمثالي سعد زغلول في القاهرة والإسكندرية.

أما تمثال نهضة مصر فتأريخ في تاريخ مختار فهذا التمثال عمل نموذجا له حين كان يتلقى دراسة الفن في مدرسة باريس ونال عليه جائزة تقديرية سنة ١٩٢٠ في أكبر معارض باريس وهو أول مصري تقبل أعماله في باريس ويستدعى للعمل في متاحفها.

كان غائبا عن مصر ولكنها كانت تعيش في كيانه وحين أراد تشكيل التمثال وصادف من المعوقات ما آلمه حتى كتب إلى رئيس الحكومة في وقته خطابا لا يقوى على كتابته في ذلك الوقت غير الفنان المستعز بفنه كمختار. يقول في خطابه:

(لقد كنت أرى على الدوام أن تدخل الحكومة في شئون الفن بالوضع القائم ليس فقط عديم الفائدة ولكن بالغ الضرر اليس من المضحك والمؤلم في الوقت نفسه، وصاية وزارة الأشغال على الفنون الجميلة؟ إلى أي طريق يستطيع أن يوجه الفنون جهاز تشغله دائما أمور بعيدة عن الفن؟

لو كان كل الفنانين في العالم يلقون مثل هذه المعاملة من حكوماتهم لهجر أغلبهم الفن واشتغل بالبقالة).

ولكن الشعب المصرى اكتتب من أجل إقامة تمثال مختار «نهضة مصر».. ومختار بدوره أعطى فيما أعطى جماعة (الخيال) وجعلها مركزا للثقافة والفن ضمت أجمل قاعة للفنون، قربى، إلى مصر وحدها كما أسهم فى إنشاء المدرسة الرسمية للفنون الجميلة.

كان «مختار» يصرف ما لديه من مال قليل على المسابك ودور العرض. لم يكن له سند من سلطة أو رفد من مال ولكنه وصل بالاصرار واقتحام العقبة والارتفاع على المحنة وهو درس للشباب.

لقد صاغ مخار آلامه فى تمثال (الأسى) وتمثال (الحزن) وإن كان صاغ تمثالا للفرح وتمثالا للحب بالنقاء الدائم فى قلب الفنان.

وصاغ مختار أحلامه فى تمثال (العدالة) وتمثال (الدستور).

ورقرق مختار حبه لمصر فى تماثيل تقول:

رمز إلى مصر بالسيدة التاريخية المعطاءة بلا حدود: الفلاحة المصرية صنع لها مختار تماثيل لا تمثالا واحدا. فلمختار: تمثال الفلاحة «العائدة من السوق» وتمثال الفلاحة «تحمل جرة الماء» وتمثال الفلاحة «بائعة الجبن» وتمثال الفلاحة ، حبيبة، «مناجاة الحب».

وتمثال الفلاحة «عروس النيل».

وتمثال الفلاحة الملكة دائما على مر العصور أى ايزيس.

أما الفلاح المصرى فقد عبر عنه مختار فى إيجاز وبلاغ فى تمثال «حارس الحقول».

ولمختار تمثال «القيلولة» وتمثال «ابن البلد» وتمثال بنت الشعب» وتمثال الدكتور على إبراهيم.. وتمثال «الزراعة» وتمثال «شيخ البشارين» لمحة من الصعيد.

أعلن مختار بالكتابة والنحت انتماءه إلى الفراعنة وأعلن بالفلاحة انتماءه إلى الريف الدائم الهوية، الممتد المصرية فارتبط بها فى تمثال «نهضة مصر» حيث وقفت مصر، فلاحة، شامخة القامة والهامة والكرامة ردا على الاحتلال البريطانى وقتئذ.. فلاحة فى العود والجود واللون والظل وما أخفه وما أعذبه.

دائما أعرف، المعاصرة، بأنها استمداد من الماضى، وامتداد به، إلى الحاضر فى استشرافة إلى المستقبل.

وفن مختار يمثل عندي هذا المعنى وبهذا استحق مختار أن يقول عنه الفنان حامد سعيد فى العام الماضى «: «إنه فنان رائد فى الفن المعاصر فى مصر يتسم بصفة المصرية التى لا يخطئها أحد من العارفين بمختلف ملامح الفنون. كما يمتاز فن هذا الرائد فى مصر بأنه فن معاصر على المستوى العالمى».

أقول مختار دعوة مصرية، ودفقة نيلية وهو بهذا باق ما تواصلت الأجيال على هذا التراب الطهور وجرى بيننا هذا النهر المرتبطة به الحياة والمرتبط بمصر.

الفنان محمد صبرى

يتحدث الناس فى انبهارهم بالتكوين واللون والوهج والدفء عن «رمبرانت» ونتحدث نحن عن الفنان محمد صبرى للتلاقى وليس للتكرار.

وسافر الفنان المصرى إلى الخارج واطلع على المتاحف وأعمال الفنانين من مختلف الجنسيات بل عرض فى المتحف القومى للفن الحديث فى مدريد سنة ١٩٥١.

وعاد إلى مصر سنة ١٩٥٢ أكثر ذخراً لأنه قدم مع «مصرياته» الملونة الواسعة الثراء (اسبانياته) المتعددة اللوحات. والرؤى حتى نهضت بمتحف خاص بها سنة ١٩٥٣ بقاعة جولدنبرج.

وسافر محمد صبرى ، ثانية، إلى أسبانيا ليدرس فن الترميم بمنحة من الحكومة الاسبانية. وتعددت عروضه فى متاحف مدريد والمغرب تمده الموهبة والقدرة والطموح وغنى الروح.. وغنت أقلام النقاد الفنيين على أعالى الدوح .. وكان الدوح، لوحات باذخة عضو أكاديمة سان فرناندو وعميد كلية الآداب بجامعة مدريد فى جريدة بمدريد سنة ١٩٥٥ - ١٩٥٦.

يبدو لنا أن «صبرى» أمهر ما يكون فى استخدام الباستيل سواء فى تصوير الطبيعة أو الشخصيات.. وطريقته الفنية تمتاز بالسرعة والحيوية.. والواقع أن هذا الفنان المصرى متمكن من فنه هذا تمكنا عظيما.

وقال «سانشيس كامارجو» وكيل متحف الفن المعاصر بمدريد فى جريدة البويبلو فى ٢٦ مايو سنة ١٩٥٦.. إن أبرز خصائص هذا الفنان المصرى، خفة لمساته حين يستغل مادة من مواد الرسم لم يكن أحد يحسم الانتفاع بها وهي أصابع الباستيل.

وقال «خوسيه فرانسيس» السكرتير العام الدائم لأكاديمية سان فرناندو بمدريد «نحن الآن امام فنان مكتمل متمكن من فنه وبأسلوب أصيل يميزه عن غيره. إن صبرى بهذا المعرض يؤكد كفاءته كاستاذ مقتدر على الألوان يمزجها فى صفاء وشفافية بمجرد لمسات خفيفة».

وتوالت معارض الفنان الدكتور محمد صبرى فى برشلونة وڤالينسيا وقرطبة وبلجيكا ولندن وروسيا وألمانيا.

لقد أقام أكثر من ثمانين معرضا مشتركا ودوليا فى مصر وأوربا. كيف صنع من الضعف، قوة؟.. إنها سره وحده.

والضعف القوى الذى أشير إليه هو مادة الباستيل الذى اتخذها الفنان محمد صبرى أداة تعبير ملون مرنم بهيج حتى

ليقول الناقد الفنى «جيليره ثرلى» حصل على الميدالية الأولى للنقد الفنى عن بينالى البندقية سنة ١٩٥٨:

«لقد أمكن للفنان صبرى أن يواجه المخاطرة الصعبة بأن يتخذ من الباستيل تلك المادة المتواضعة الوسيلة لأداء فن عظيم وليصبح استاذا مميزا فى هذا النوع من الفن وقد أمكن بالمثابرة والحس المرهف والموهبة أن يفتح بابا كان يبدو موصدا، أمام كبار الفنانين».

أقول للناقد إن الفنان محمد صبرى ابن الحضارة الأولى فى الدنيا التى صنعت المعجزات بأقل الوسائل وهذا سرها ومجدها فى وقت واحد.. هل وصلت الدنيا بكل التكنولوجيا إلى سر الأهرام والمسلات؟ ألم يقل جريفث استاذ الحضارة المصرية بجامعة لندن «إن مصر قد رسمت علامات استفهام كثيرة لا تزال تطلب منا الحل)؟.

ومن بدائع الفنان محمد صبرى، روائعه الفنية التاريخية فى آن واحد أى الآثار الإسلامية فى الأندلس: قصر الحمراء بغرناطة والجامع الكبير فى قرطبة وبرج الذهب والقصر فى اشبيليه والقضية العربية فى ملقه والقصبة العربية فى المريا، والكوبرى العربى فى رونده..

أكثر من ثلاثين لوحة خلابة.

وقد أصدرت أكاديمية الفنون الجميلة «سان فرناندو» بمدريد قرارا بتعيين الفنان محمد صبرى عضوا اكاديميا مراسلا، بها.

وهو أول فنان عربى يحظى بهذه العضوية الشرفية فى أقدم وأعرق أكاديميات العالم.

كما عينته اكاديمية ڤالنسيا (سان كارلوس) عضوا أكاديميا بها سنة ١٩٧٣.

وليس الباستيل وحده الذى رسم به فقد رسم بالقلم والألوان المائية والألوان الزيتية وأهدى إلى مصر:

لوحة السد العالى وسماها (مصر)

لوحة الأزهر

لوحة العبور سنة ١٩٧٣ والتى أسميها لوحة الانتصار المدوى بعد لوحة بورسعيد التى أسميها لوحة المقاومة الباسلة.

أما نقطة الباستيل الذي يتفادى الفنانون صعوبته فإنها تستحق وقفة. لماذا آثر الفنان محمد صبري، الباستيل؟ هل هو عشق للخلود قابع فى أعماق المصرى فنانا أو إنسانا له اهتمامات أخرى؟

من طبيعة ألوان الباستيل أنها لا تتغير بمرور الزمن.. على العكس من الألوان الزيتية.

لقد ذاع استعمال الباستيل فى الغرب فى القرن السابع عشر والثامن عشر وبعد معرض فنانى الباستيل فى لندن سنة ١٨٨٠ ازدهرت ألوان الباستيل وتعددت وسائل استخدامه.

إن فن اللمسة القادرة التى تتعامل مع اللون والفراغ والاشعاع والتعبير من خلال هذا كله.

فإذا كانت فرنسا تعتز فى هذا الباب بالفنانين (ميليه) و(بسنار) و(رينوار) و(ماتيس).

وإذا كانت انجلترا تعتد بلوحات (ويسلر) و(تونك) فإن مصر قد أهدت راية «الباستيل» إلى الفنان محمد صبرى سلمت يدها. وسلمت يده.

رقم الإيداع

٢٠٠١/١٦٢١٣

977-07-0809-7

هــذا الكتــاب

إنهم رموز مشرفة مشرقة نعتز بهم
وبما أدوا .. وأضفوا .. وأضافوا ..
فى سمت السرىّ بالمحــتد
الثـرى بالقيــمـة
الزكىّ بالارتفاع
الكبير بالامتنـاع

فـالواحـد منهم رفـيع منيع تشـرف بهم أجيـالنا جيلا وراء جيل بما أورثوها من كنوز المعرفـة وهم الإمام المراغى صاحب الفضيلة - الشيـخ مصطفى عبدالرازق - الشيخ محمد الغزالى - محـمـد فؤاد عـبـدالبـاقى - أمين الخـولى المدرسـة والمنـهج - محـمـد خلف الله أحـمـد - عـبـداللطيف السحرتى - مصطفى لطفى المنفلوطى - المهندس حسن فتحى - الفنان حـامـد سـعـيـد - الفنـان صـلاح طاهر - الفنان مختار - الفنان محمد صبرى.